د. أحمد خالد توفيق

الآن نفتح الصندوق 3

دار ليلى للنشر والتوزيع

الآن نفتح الصندوق 3

د. أحمد خالد توفيق

الآن نفتح الصندوق 3

د. أحمد خالد توفيق

دار ليلى للنشر والتوزيع

دار ليلى للنشر والتوزيع

الكتاب:
الآن نفتح الصندوق 3
المؤلف:
د. أحمد خالد توفيق
الغلاف
دار ليلى
التنفيذ الفني:
حسام سليمان
التدقيق اللغوي:
دار ليلى
• • •
إدارة التوزيع:
أ. عبد الله شلبي
الإشراف العام:
أ. محمد سامي
• • •

رقم الإيداع: 2010/14832

الترقيم الدولي: 978-977-6386-14-3

المهندسين - 23 شارع السودان، تقاطع مصدق - الدور الرابع مكتب 11
هاتف: (002)(02)333700 - (002)(012)3885295
الموقع www.darlila.com البريد الإلكتروني mail@darlila.com

قبل أن نغلق الصندوق...

يبدو أن الدكتور (محفوظ) يرحمه الله كان ثرثارًا. لقد فتحنا الصندوق للمرة الثانية وأخرجنا حشدًا من الأوراق من داخله، وكلها قصاصات تحكي عن تجاربه الغريبة مع عالم الرعب أو عالم الماورائيات. برغم هذا ظلت قصاصات عدة في مكانها هنا وهناك.

أظرف مغلقة.. أوراق مطوية.. قصص كاملة كتبت بخط دقيق جدًا على ظهر أوراق تقويم.. كراس لولبي ممزق... آلخ...

إن الصندوق لم يفرغ بعد، وما فيه يستحق كتابًا أخيرًا يحمل العنوان ذاته (الآن نفتح الصندوق — ٣).

إن الخوف من الصندوق المغلق أو الحيرة بصدد محتواه قديمان جدًا في وجدان البشرية، ولسوف تجده في ألف ليلة وليلة وشكسبير وقصص الأطفال وكل شيء.. إنه الغيب مجردًا.. نحن محظوظون لأننا نعرف يقينًا أن الصندوق يحوي قصاصات ورقية.. لن نجد جثة كما في ألف ليلة وليلة، ولن نجد عقربًا أو ثعبانًا أو سبيكة مشعة أو غازًا سامًا أو لعنة قديمة..

بعض هذه القصص قد يكون ممتعًا، وبعضها مخيف، وبعضها طريف، وبعضها ممل كالجحيم.. الاحتمال الأخير خطر علينا وعلى د. محفوظ طبعًا، لكن ما أكثر الملل في هذا العالم على كل حال!..

هناك نافذة خلفية ذات صفات غريبة.. هناك كلب يؤدي النداء

باسمه إلى كارثة.. هناك مقابلة عمل غريبة جدًا.. هناك حالة متقدمة من الأرق.. هناك بقع حبر ورأس من رءوس التسانتسا المصغرة.. هناك أغنية أطفال شريرة..

أعتقد أنك ستحب هذه المجموعة من القصاصات.. اقرأها وادعي بالرحمة للدكتور محفوظ الذي عاش حياة صاخبة حقًا، ومات فقيرًا فلم يترك لورثته سوى قصص..

الآن وقد عرفنا قواعد اللعبة، هاتوا شمعة ولننزل للقبو ونفتح الصندوق.. هذه هي الورقة الأولى...

هل ترى الحروف؟.... ماذا تقول؟.....

د. أحمد خالد توفيق



اسمه ريديو

تسألني لماذا أكره الكلاب إلى هذه الدرجة..

رأيي أن الكلاب كائنات لطيفة شديدة الحساسية.. ليس في هذا أي تناقض.. (تشيكوف) الكاتب الروسي العبقري يقول: "أناس رائعون هؤلاء الكلاب".. وأنا كنت أحب الكلاب كثيرا.

النظرة الذكية المعبرة فعلاً والإخلاص الذي لا يتزعزع والصدق. صحيح أن القط أكثر ذكاء، لكن شخصيته المستقلة وتمرده يعطيان انطباعًا مختلفًا.. الموظف محدود الذكاء الذي يطيع رئيسه طاعة عمياء يعتبره الرئيس عبقريًا، بينما نفس الرئيس دائم الشكوى من الموظف (الغبي) المتمرد النازع للاستقلالية..

لأسباب دينية لم أقم بتربية كلاب على مدى حياتي، إلى أن امتلكت وأسرتي بيتًا ريفيًا صغيرًا في قرية مجاورة.. هذا البيت له حديقة، ويسمح بأن يلهو كلب كما يريد كما أن غرض الاحتفاظ به للحراسة واضح تمامًا..

من أحد أقاربي الذي أنجبت كلبته عددًا من الجراء الصغيرة، حصلت على ذلك الجرو الصغير من نوع (الراعي الألماني). وقد شرح لي طريقة رعايته والحفاظ على صحته، فهذه كائنات حساسة لا يجب التعامل معها بخفة..

أقام الأولاد مهرجانًا كاملاً حول الكلب الصغير، حتى خطر لي أنه ما من لعبة في العالم مهما غلا ثمنها يمكن أن تجلب لهم كل هذه السعادة.. وقد كان شبه رضيع لذا بدت سنه مناسبة لسنهم

والتفاهم كاملاً، والولع باللعب واحدًا..

هكذا راحوا ينتظرون يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع ليذهبوا لبيتنا الريفي، حيث يلعبون مع الكلب الصغير طيلة اليوم تقريبًا..

نسيت أن أقول إن هناك خفيرًا اسمه (عبد الباري) يعنى بالبيت والكلب طبعًا طيلة غيابنا..

- "ماذا نطلق عليه؟"

نتحدث عن الكلب لا الخفير طبعًا... بعد تفكير جديد قررت أن أطلق عليه اسم (ريديو)، وهو اسم كلب سمعته قديمًا في فيلم أمريكي لا أذكر اسمه.. ولعلها لفظة (روديو) التي أخطأت في سماعها..

الأولاد وجدوا الاسم سخيفًا ثقيلاً على اللسان، وأصروا على أن يظل اسم الكلب بالنسبة لهم (لاكي).. أثار هذا غيظي.. أنا من يدفع ثمن طعامه ومن حقي الكامل أن اختار الاسم. وقد قررت على كل حال أن استمر في استعمال الاسم الذي اخترته أنا، برغم أن إطلاق اسمين على كلب لابد أن يسبب له حيرة لا بأس بها..

بدأ كل شيء في أحد أيام الخميس قرب امتحانات منتصف العام..

الأولاد في البيت بالمدينة لأن الامتحانات على الأبواب طبعًا.. لا وقت للنزهة.. كانت هناك بعض المشاكل الملحة، لذا اتجهت وحدي إلى البيت الريفي لأمضي فيه الليلة.. في الصباح أنهي بعض الأمور واصلي الجمعة ثم أعود..

كان الخفير (عبد الباري) يعيش وحده لأن أسرته هناك في المنيا. تناولت معه لقمة من طعام جلبته من المدينة معي.. ثم أعد لنا شايًا ثقيلاً أسود يصلح لرصف الطرقات كالعادة فشربته ومعدتي تتقلص..

ذهب لقضاء بعض شأنه، فرحت أعبث مع الكلب الذي صار أقرب إلى فتى مراهق وسيم قوي البنية.. كان الليل قد اقترب، ومعه البرد، لكن الأشياء كانت مرئية. رحت أمشي معه في أرجاء الأرض الزراعية المحيطة بنا، وهو في حالة عظيمة من المرح كدأب الكلاب..

وجدت تحت جذع شجرة كرة الأولاد المطاطية الصغيرة التي

ضاعت منهم، فالتقطتها ورحت أرميها بعيدًا وأصيح في الكلب: (ريديو).. من ثم يركض وهو يبصبص بذيله ليجلبها لي.. وكعادة الأطفال السخيفة هو لا يمل التكرار أبدًا..

هذه المرة قذفت الكرة نحو بقعة خالية قرب الساقية العجوز التي لا تعمل منذ عصر (أحمس).. وصحت به:

-"(ريديو)..!"

من الغريب أنه تصلب بعض الوقت.. ظل يرمق المكان في شيء من التوجس بينما عيناه تنطقان بتلك اللغة الصامتة للكلاب..

-"هلم يا جبان!"

لكنه لم يبال بأن أشتمه.. ظل ينظر للمكان ثم لي، وسرعان ما كان يبتعد وذيله بين فخذيه..

رحت أناديه بصوت عال:

-"(ريديو)!.. (ريديو)!.. (لاكي)!"

غريب هذا.. الكلاب ليست مزاجية مثل القطط، وغالبًا ما تتصرف على أساس منطقي واضح..

هكذا عدت وأنا أسب وألعن.. أحتاج إلى غسل السروال والحذاء، والمشكلة هي أنني لم أحمل معي سوى منامة لقضاء الليل باعتباري لن أبدل هذه الثياب غدًا..

دخلت البيت فوجدت أن الضوء الكهربي لا يعمل لسبب لا أفهمه.. لكن الكهرباء موجودة والثلاجة تهدر كما تركتها.. أعتقد أن هناك خطأ تالفًا.. خرجت طالبًا (عبد الباري) فظهر من مكان ما بين أشجار النخيل.. قلت له إن الضوء معطل ولا أعرف السبب..

-"يجب أن ننتظر حتى الصباح يا دكتور.. هناك كهربائي في القرية المجاورة لكن من المستحيل أن يأتي الليلة.."

-"والحل؟"

الحل كان مصباح الكيروسين الذي جاء به للبيت.. رائحة الوقود الزكية والضوء المخيف وذكريات لا تنتهي عن طفولتي.. قمت بتعليق المصباح في مكان يكشف لي الصالة في البيت، وخطر لي أن أبدل ثيابي، ثم تذكرت الكلب (ريديو).. أين هو؟.. هناك صوت صراخ رفيع كصراخ الكلاب.. فهل هو؟..

خرجت أبحث عنه حاملا كشافي الصغير، ولم يكن (عبد

الباري) قريبًا.. إنه يختفي دائمًا لكنك تجده عندما تريده.. قررت أن أعود لموضع الساقية حيث الكرة.. صوت جاموس يخور في حظيرة ما من بعيد.. البرد قارس فعلاً..

هناك رحت أنادي (ريديو).. (ريديو).. بلا جدوى..

ثم دنوت من المكان الذي توارت فيه الكرة.. ما هذا؟.. الطين مبعثر في كل مكان.. فجوة لا بأس بها أبدًا في الأرض.. لو تركت لخيالي العنان لقلت إن شيئًا ما كان هنا، وحاول الخروج..

وقد أفلح في ذلك..

هناك آثار شيء يزحف على الوحل.. هناك ما يشبه خطوات الأقدام.. ما معنى هذا؟

نظرت إلى الشرق حيث كانت حقول الذرة الخاصة بجارنا.. هنا رأيت (عبد الباري) يمشي هناك وهو يترنح.. صحت أناديه لكنه توارى وسط أعواد الذرة ولم ينظر للخلف..

شعرت بقشعريرة.. هناك أشياء غريبة جدًا تحدث هذه الليلة..

ركضت لاهثًا قاصدًا البيت.. ووقفت أمامه أنادي من جديد:

-"عبد الباري!"

هنا فوجئت به جالسًا على عتبة الباب يدخن (البوري) في اساع وهو يشرب الشاي الأسود، وكان يلتف بتلك التلفيعة الصوفية العملاقة التي يلفها حول رأسه مائة مرة حتى كأنه في سيبيريا..

-"خير يا دكتور؟"

-"لماذا لم ترد علي عندما دخلت حقل الذرة؟.. وكيف عدت هنا وأشعلت الفحم وأعددت الدخان بهذه السرعة؟"

-"أنا لم أتحرك منذ ربع ساعة يا دكتور!"

إذن هناك من يعبث في الجوار.. لكن من هو؟.. ما هو؟.. ثمة شيء في مظهره جعلني لا أريد أن أراه ثانية...

دخلت البيت. لقد تركت الباب مواربًا على ما يبدو.. اتجهت لغرفة النوم وبدأت أبدل ثيابي في إضاءة ضعيفة للغاية، وهنا وثبت مترًا في الهواء..

كان هناك شيء يلمس ساقي العارية.

جثوت على ركبتي وفتشت بيدي فوجدت أنني أتحسس

عنق الكلب ورأسه.. كان يمسح وجهه بي بتلك الطريقة الودود لدى الكلاب.. وهنا قد جعلني أهدأ فعلاً.. لو كان هذا كلبًا فعلاً ككل الكلاب فهو يعرف كيف يحميني..

ثم خرجت إلى الصالة وهو معي، حيث ازدادت الإضاءة قوة..

نظرت له من جديد هنا أصابني الذعر.. لقد كان عنقه ممزقًا تمامًا.. شيء أنشب أنيابه في عنقه وأوشك على أن يفصله، ومن الغريب أنه ما زال حيًا..

قمت بربط سريع في ذهني: حفرة الطين.. شيء خرج منها.. الكلب كان خائفًا.. الكلب عنقه ممزق... قصة واضحة جدًا، لكن ما هو الوحش الذي يعيش تحت الأرض ويخرج ليمزق عنق كلب؟

لحسن الحظ كانت هناك أربطة وما يلزم لتعقيم الجرح، وهي مهمة صعبة قاسية، لكن ما بقي كان أعظم.. علي أن أتأكد من أنه لم يصب بالكلب – بفتح الكاف واللام – أي داء السعار ولم يصب بالكزاز (التيتانوس).. هذا يعني أن علي أن آخذه في سيارتي

غدا ليراه طبيب بيطري..

والأغرب أن هذه الجروح بليغة إلى حد لا يوصف.. لا أعرف كيف عاش كل هذا الوقت لكنه ما زال حيًا.. إنه أصلب مما توقعت فعلاً..

قررت أن أتركه ينام في البيت هذه الليلة.. الجو بارد بالخارج فعلاً فليس الوقت وقت الحرص على نظافة البيت. اندسست في فراشي في البرد والظلام وراحت أسناني تصطك.. أحتاج لساعة حتى تعمل النظرية الميكانيكية الحرارية ويسري الدفء في الفراش...

في الصباح قررت أن أرحل فورًا إلى المدينة وأتصل بطبيب بيطري بلا انتظار، فالمسكين قد لا يعيش كل هذا الوقت..

حمل (عبد الباري) الكلب ووضعه في مقعد السيارة الخلفي، وقال لي ناصحًا:

-"فلنغرقه في الترعة يا دكتور.. هذا أفضل من الإنفاق عليه.. فهو شبه ميت"

-"أرجو أن تصمت.. أولا هو كائن حي.. ثانيا لن يغفر لي

أولادي أي ضرر يحل به"

-"إذن خذ الحذر.. ربما عضته (سلعوة) وبالتالي سيصير مسعورًا"

انطلقت بسيارتي على الطريق المفرد الوعر الذي يقود إلى طريق أسرع يقود للمدينة..

بعد خمس دقائق سمعت صوتًا غريبًا من خلفي..

نظرت في مرآة السيارة لأرى المقعد الخلفي فرأيت الهول نفسه.. هذا ليس كلبًا.. إنه الشيطان ذاته ينهض هناك.. أنا متأكد من ان عيني لا تخدعانني.. لقد صارت عيناه بلون الدم واستطالت أنيابه.. أزال ضمادة عنقه فبدا لي مروعًا ممزقًا لدرجة لا تصدق..

هذا الشيطان في المقعد الخلفي وهو ينهض ناظرًا لعنقي..

ماذا دهاك؟... ماذا دهاك يا (ريديو)؟.. هنا بدأ الجزء اللاتيني في عقلي يعمل.. لماذا اخترت هذا الاسم بالذات؟.. (ريديو) معناها باللاتينية (انهض).. أنا وقفت كثيرًا أمام تلك المنطقة الغامض قرب الساقية ورددت مرارًا بصوت عال (ريديو).. (انهض)... فهل استجاب شيء ما لندائي المتكرر وخرج من

الوحل؟.. هل كان هو الشيء الذي غاب وسط عيدان الذرة؟.. هل كان هو الشيء الذي عض الكلب وجعله شيطانًا؟

هذا المسخ ينهض الآن ويقترب من عنقي.. لو أوقفت السيارة لوثب.. لو ضغطت الفرملة لطار ليطرحني في ظهري..

كنت أنظر في المرآة متوترًا عندما سمعت صوت البوق عاليًا..

نظرت للأمام لأجد ذلك اللوري قادمًا يهوي نحوي مباشرة وسائقه لا يكف عن إنذاري بالكارثة.. أدرت المقود بسرعة ودست الفرملة، وهوب.. سرعان ما دارت السيارة حول نفسها عدة مرات وانقلبت..

لا أعرف كم مر من الوقت قبل أن يخرجوني من السيارة المقلوبة، ولا كيف تعاون خمسة من الفلاحين الذين أمسك كل منهم بذيل جلبابه بين أسنانه ليعيدوها على عجلاتها..

-"هل أنت سليم؟"

نعم.. سليم.. هذا مؤكد... يبدو أن السيارة كذلك صالحة للسير.. لقد نجوت بمعجزة.. لكن أين الكلب؟.. أين (ريديو)؟

كان الباب الخلفي مفتوحًا لكن لا يوجد شيء.. لا يوجد كلب..

شكرت الرجال وركبت سيارتي وأدرتها فدارت.. انطلقت لا ألوي على شيء نحو المدينة..

لا أعرف ما حدث فعلاً، ولا أعرف إن كنت محقًا أم لا.. كل ما أعرفه هو أنني سأبيع هذا البيت الريفي المنحوس مهما احتجت زوجتي.. ولن أربي أي كلب ثانية طيلة حياتي. فإذا ما اضطررت لذلك سيكون علي أن أراجع قاموس اللاتينية لأعرف معنى اسمه بالضبط!!

عدو الأجهزة

عائـدًا مـع صـديقي (مكـرم) إلى داره بعـد سـهرة طويلـة، أخبرني بالتفاصيل الغريبة لمشكلته.

لم ألحظ هذا من قبل ولكن هذا لا يدل على شـيء إذا تـذكرنا أنني لم أر (مكرم) منذ أربعين عامًا.. كان في نفس الصف معي في

المدرسة وكان لامعًا شديد الذكاء.. لم ألق عباقرة كثيرين في حياتي لكنني أعرف يقينًا أن (مكرم) يجب أن يكون منهم..

في تلك الليلة قابلته وقد عاد لمصر بعد حياة طويلة من العمل مهندسًا في كندا.. وقد حكى لي كل تفاصيل حياته في السنين الماضية وحكيت له كل شيء، وتناولنا عشاء دسمًا في (الحسين) ودخن الشيشة وشرب الشاي الثقيل وعصير القصب.. كان يحتفل بمصريته بشدة..

قال لي:

-"لقد كادت الطائرة تسقط بنا لدى عودتي.. وقد توقعت هذا على كل حال.."

قلت ساخرًا:

-"من حسن الحظ أنها لم تفعل.. لماذا توقعت ذلك؟؟ هل أنت نحس لهذا الحد؟"

-"لست نحسًا.. الأمر لا يوصف بكلمات"

كنا نمشي في الشارع المظلم الذي لا تضيئه إلا بعض أعمدة

النور الفوسفوري الكئيب. سمعته يطقطق بلسانه من حين لآخر كأنه يستنكر.. ثم قال:

-"مرة أخرى!"

قلت لنفسي إنه غريب الأطوار بعض الشيء.. هذا متوقع مع عبقري مثله. بعد قليل كرر الكلام ذاته.. ورأيته ينظر بدهشة إلى شيء ما..

نظرت لما ينظر له فوجدت عامود نور غير مضاء.. شيء طبيعي جدًا في مصر.. لما مررنا بالعامود بدأ ضوء خافت يتراقص ثم عاد يشع بكفاءة..

هنا كنا نمر بقرب العامود الثاني.. رأيت ضوء العامود يخفت ببطء ثم يتلاشى تمامًا...

نظرت له في عدم فهم، فقال لي باسمًا:

-"نعم.. الأمر كما تراه بالضبط. وجودي يطفئ أعمدة النور في الشوارع!"

قلت محتجًا:

-"لكن هذا مستحيل.. "

-"أنت رأيت بعينك وتدرك أنه حدث فعلاً.. "

-"هي مجرد مصادفة.. كل هذه المصابيح قد انتهى عمرها الافتراضي.. إنها تتوهج وتنطفئ وتعود لتخبو... هذا شيء يعرفه كل طفل.. "

كنا الآن نمر جوار عامود آخر فرأيت ضوءه يتراقص ثم يخبو.. ورأيت ابتسامة منتصرة على وجه (مكرم) كأنه يقول لي: أرأيت؟..

أخيرًا بلغنا بيته وأنا عاجز عن الفهم، فأخرجت جهاز الهاتف المحمول لأرى إن كانت رسائل قد وصلتني.. هنا فوجئت بأن شاشته مطفأة.. مستحيل أن يكون الشحن قد انتهى لأنني شحنته بنفسي منذ ساعتين.. إن هذه ليلة من تلك الليالي إذن..

قال لي وقد رأى نظرتي:

-"أنا لا أستعمل الهواتف المحمولة لأنها تتلف دائمًا معي.. سبب لي هذا مشاكل جمة في كندا.. المشكلة لم تكن بهذا

الوضوح فيما سبق، ثم ازدادت تعقيدًا حتى صار عملي هناك مستحيلاً.. هكذا عدت إلى مصر.. "

قلت في حيرة وأنا أحك رأسي:

-"لحظة.. هل تقول إنك تطفئ أنوار الشارع وتتلف الهواتف المحمولة؟.. هل أنت قادم من المريخ؟"

-"الأمر أسوأ من هذا.. تعال معي.. "

الشقة المفروشة التي استأجرها في حي المهندسين كانت في الطابق الرابع.. عالية جدًا بالنسبة لسني، لكن المصعد كان معطلاً.. عرفنا هذا عندما دخلناه وضغطنا على الأزرار فلم تستجب.. صعدنا الدرج بصعوبة جمة، وأخيرًا فتح لنا الشقة فارتميت على أول مقعد وجدته لاهثًا..

هنا بدأت أكتشف جوانب المشكلة..

التلفزيون تالف.. الثلاجة تصدر أصواتًا غريبة.. المصابيح تعمل لكنها ليست فوسفورية طبعًا.. نظرت له متسائلاً محاولاً الفهم فقال:

-"الأجهزة كلها تتلف في وجودي.. هذه حقيقة.. شاشات الكمبيوتر تظلم.. الهواتف تتعطل.. أجهزة القياس في المختبر تنفجر.. لقد صار عملي مستحيلا.. أعتقد أنني انتهيت.."

قلت له مغتاظًا:

-"كل هذه مصادفات.. يجب أن نتعامل بمنطق علمي.. لا يوجد شيء اسمه النحس!"

-"ومن تكلم عن النحس؟.. أنا أتكلم عن ظاهرة عجيبة تجعلني معاديًا لكل الأجهزة والأضواء.. أنت رأيت أبعاد المشكلة وشاهد معي على حجمها الحقيقي.."

فكرت بعض الوقت وحككت رأسي للمرة الألف كأنه عامر بالقمل:

-"هناك تفسير ولسوف أجده.."

هكذا انتظرت حتى جاء اليوم التالي.. واصطحبته لصديقي د. مصطفى أستاذ علم النفس.. أنت تعرفه ولا شك..

من الغريب أن أية أجهزة لم تتلف منذ دخلنا بيته.. هذه

قاعدة مفروغ منها وتتكرر دومًا.. لا شيء يحدث أمام الخبراء. لكن د. مصطفى رحب بصديقي الآخر وقدم لنا القهوة، ثم راح يصغي بانتباه لقصة (مكرم) مع الأجهزة ومع أضواء الشارع..

قال (مصطفى) وهو يرشف القهوة:

-"لا أنكر أن القصة مثيرة.. لكني ألاحظ أن أيًا من الأجهزة الكهربية هنا لم يتلف.. الثلاجة والمكيف والتلفزيون تعمل جيدًا.. هل لديك تفسير؟"

قال (مكرم):

-"لا تفسير سوى أن الطبيعة غير منتظمة ولا يمكن التنبؤ بها.. إن لها قوانينها الخفية التي لا ندركها.. ذات مرة – أثناء الحرب العالمية الثانية – سقطت قنبلة شديدة الانفجار وسط خمسة من جنود الحلفاء وهم جالسون يتناولون الطعام.. تصور هذا!.. بدلاً من الخبز هبطت قنبلة.. برغم هذا لم يخدش أحدهم!.. وقد فسروا الأمر بأن أجلهم لم يحن بعد.. نفس الشيء ينطبق على الظواهر الغريبة.."

قال د. مصطفى وهو يضع ساقًا على ساق ويشعل لفافة تبغ:

-"هذا كلام معقول، لكنه يخرق القواعد العلمية التي تقضي بأن تكون الظاهرة قابلة للتكرار والتفسير والقياس.. لكن دعني أقل لك إن هناك ظاهرة معروفة بهذا الشكل فعلاً ولها اسم.. "

نظرت له في دهشة متسائلاً:

-"تلف الأجهزة له اسم غير النحس؟"

-"نعم.. اسمه (تأثير بولي).. هناك أشخاص يسببون تلف الأجهزة الكهربية، وفي الخارج أطلقوا على الظاهرة هذا المصطلح نسبة لعالم نمساوي اسمه (بولي).. بلغت سمعته السيئة أن كثيرًا من العلماء كانوا يمنعونه من التواجد في المدينة عندما يجرون تجاربهم.. وقد زار جامعة برنستون عام 1950 فاحترق جهاز السيكلوترون باهظ الثمن هناك بلا تفسير.. الآن نعرف أن هناك كثيرين يسببون الشيء ذاته، وتفسيره غير واضح.. على الأرجح هو نموذج لما وراء علم النفس.. وأنت يا أستاذ (مكرم) لست استثناء. فقط تتزايد هذه الظاهرة مع الوقت"

قال (مكرم) مفكرًا:

-"وأضواء الشارع التي تشحب؟"

-"لم تبتعد كثيرًا.. إعاقة مصابيح الشارع أو SLI هو جزء من ظاهرة بولي.. أشخاص كثيرون يسببون انطفاء أنوار الشارع عندما يمرون جوارها.. "

قلت في سخرية:

-"يبدو لي هذا كلامًا فارغًا.. "

-"كثيرون وأنا منهم يرونه كذلك ويرون أنها مصادفات لا أكثر.. بينما كثيرون يعتقدون أن للدماغ موجات خاصة تسبب هذا التأثير.. على كل حال أية محاولة لتكرار هذه التجارب في المختبر فشلت.. لا يستطيع هؤلاء القوم أن يعيدوا التجربة عند الطلب"

ساد صمت عميق ورحنا نفكر في هذا الذي قاله..

تأثير بولي أو مصادفة.. الأمر سيان.. إما أن تقبل تفسير بولي أو تقبل فكرة النحس.. معضلة حقيقية..

فجأة سمعنا صوتًا مكتومًا كأن أحدهم يختنق.. ثم دوى

صوت شيء يضرب الأرض.. نهضنا مذعورين وقد فقدنا وقارنا ونسينا أن هذا ليس بيتنا. لنركض خارج الغرفة.. هناك كانت زوجة د. مصطفى قد سقطت على الأرض وهي تحمل صحفة عليها بعض الحلوى لنا. كانت ترتجف وصدرها يعلو ويهبط والزرقة تغزو شفتيها.

جرى مصطفى وتحسس نبضها ثم هتف

-"قلبها متوقف!.. فليستدع أحدكم الإسعاف!.. بسرعة!"

ثم راح يجري لها الإفاقة القلبية الرئوية.. هنا نظر لها (مكرم) مفكرًا ثم تساءل:

-"هل هي تستعين بجهاز منظم لضربات القلب؟.. هل زرعت واحدًا؟"

كنت أعرف أن قلبها مريض.. لم أعرف أنها زرعت هذا الجهاز إلا عندما سمعت السؤال الذكي. فقال مصطفى وهو يواصل الضغط على عظمة القص في صدرها

-"نعم.. نعم"

عندها اندفع (عوني) خارجًا من البيت بسرعة البرق...

قبل أن أفهم ما يحدث.. كان د. مصطفى يصيح وشبح ابتسامة على شفتيه:

-"إنها تعود!.. لقد عاد الجهاز يعمل!!!"

وتبادلنا النظرات!.. لم يتلف (عوني) سوى جهاز واحد.. وهذا الجهاز كان هو الأهم.. لقد كانت السيدة تعتمد عليه بالكامل للبقاء حية..

قال د. مصطفى والعرق يغمر جبينه وهو يحتضن زوجته:

-"لا يهم.. أنا أؤمن بالمصادفات لكن لا أؤمن بتأثير بولي هذا..."

لم أعرف الكثير عن (مكرم) بعد هذا.. لم يعد إلى كندا. لقد سافر إلى إسبانيا ولا أعرف العمل الذي احترفه بعيدًا عن الأجهزة. لا شك أنه عمل لا علاقة له بالهندسة..

على إنني تلقيت منه مؤخرًا خطابًا يحوي قصاصة من صحيفة أسبانية. احتجت طبعًا إلى معونة صديق يدرس الإسبانية

في الألسن. الخبر يحكي عن كافتيريا في العاصمة تلقى رجال الشرطة مكالمة بصددها.. هناك قنبلة زمنية في تلك الكافتيريا معدة لتنفجر بعد دقائق. إن منظمة (إيتا) الانفصالية تقوم بأعمال كثيرة من هذا القبيل على كل حال. هرع رجال الشرطة إلى هناك لكن هذه كانت ساعة الذروة، وكان اختراق الطرق صعبًا.. دعك من أن فترة الإنذار كانت قصيرة جدًا لا تسمح بعمل شيء. إنه نوع من الإنذارات المستفزة التي تمارسها (إيتا) كنوع من الضغط على الأعصاب..

وصل رجال الشرطة متأخرين كالعادة، ولكن شيئًا لم يحدث لحسن الحظ.. لم تنفجر القنبلة.. من الواضح إذن أنها لعبة سخيفة من شخص عديم المسئولية كالذين يتسلون بالإسعاف عندنا في مصر للتسلية. لكن البحث المدقق بوساطة الكلاب البوليسية كشف عن قنبلة زمنية في الحمام فعلاً.. قنبلة دقيقة الصنع متقنة جدًا.. وكانت ستنفجر في الوقت المحدد بالضبط. لكن سببًا مجهولاً جعلها تتلف وتتوقف ساعتها..

لا أحد يعرف السبب لكنهم يرجحون أن حظ الموجودين بالكافتيريا كان نادرًا.. لو انفجرت القنبلة لما قل عدد القتلى عن خمسين. لماذا تتلف قنبلة صنعت بهذه الدقة والبراعة؟

في النهاية كتب (مكرم) بالعربية سؤالاً يقول:

-"هل خمنت من كان بين زبائن الكافتيريا في ذلك اليوم؟"

غريب أمر (مكرم).. يفترض أنني عبقري.. كيف لي أن أخمن شيئًا كهذا؟

أنت تعرف

هذه القصص

السيارة التي أتكلم عنها كانت من طراز (أوبل) موديل عام 1997.

الإعلان الذي أتكلم عنه كان في جريدة إقليمية صغيرة من

تلك الصحف التي لا يقرؤها الناس إلا للإعلانات.. مع الإعلان رقم هاتف أرضي.

السعر الذي أتكلم عنه كان ألفي جنيه.. ألفي جنيه لسيارة (أوبل) لم تشخ أكثر من عامين.. وفي ذلك الوقت كان السعر لا يقل عن أربعين ألفًا بحال.

الصديق الذي أتكلم عنه هو (صلاح الخطيب).. مهندس لا يعمل بشهادته، وانما وجد أن أكثر الأعمال ربحًا هو ابتياع السيارات القديمة وإصلاحها.. أو السمسرة بشكل أو بآخر..

اتصلت به وسردت عليه هذا العرض فقال لي في ثقة الخبراء إن الاحتمالات لا تزيد على:

1 - خطأ مطبعي فادح في الإعلان.

2- السيارة مسروقة أو (ليس لها ورق) بلغته.

3- السيارة ضحية حادث مروع.. انقلبت أو انشطر (الشاسيه) إلى نصفين ثم تم إصلاحها على عجل بانتظار الأحمق الذي يشتريها.

ثم صمت للحظات مفكرا وأشعل لفافة تبغ وقال في خبث:

-"هناك احتمال رابع.. لكنه هراء طبعًا.."

سألته بفضول:

-"وما هو؟"

ضيق عينيه في خبرة وحنكة ونفث سحابة دخان كثيفة وقال:

-"أنت تعرف هذه القصص.. هناك من مات ميتة شنيعة فيها وشبحه يطارد من يركب السيارة بعد هذا.."

-"هل تصدق هذه السخافات؟"

عنده قصة (من تلك القصص) على كل حال.. كانت هناك سيارة مرسيدس احترق راكبها وهو يحاول فتح الباب المغلق.. منذ ذلك الحين يشعر من يحاول أن يقود السيارة بحرارة لاهبة تحرق جانب جسده، حتى يضطر إلى الصراخ ومغادرتها.. النتيجة أنها بيعت عدة مرات حتى هبط سعرها إلى خمسة آلاف..

كنت أعرف أنه عملي جدًا، فلن يترك أي شبح يفسد عليه صفقة كهذه، لذا سألته عما فعله عندما بلغته السيارة.. فقال:

-"بعتها بسعر ممتاز.. مشكلة البلهاء الآخرين هي الأمانة.. يقولون للمشتري: تفضل.. هذه هي السيارة لكن علي أن أحذرك من أن فيها عفريتًا يحرق كل مشتر جديد.. أنت تعرف هذه القصص.. تعال الآن نته الأوراق!.. طبعًا يفر المشتري مذعورًا، ولو جرب قيادتها فلابد أن يشعر تحت تأثير الإيحاء بأنه موشك على الاحتراق.. النتيجة هي أنني ابتعت السيارة بخمسة آلاف وبعتها بخمسين.. تركت للمشتري الجديد أن يكتشف كل شيء بنفسه.. "

بدا لي كلامه منطقيًا.. دعك من أنني أؤمن فعلاً بأنه لا توجد سيارة مسكونة.. هكذا قلت له في حماسة:

-"هل تأتي معك لنرى هذه السيارة؟.. أنا لا أفهم هذه الأمور.."

-"جميل.. وإن لم ترق لك وراقت لي فسوف أشتريها.. "

هكذا مكالمة هاتفية وتحديد موعد في (المرج) للقاء صاحب تلك السيارة. توجهنا هناك في الموعد، وعلى مقهى شعبي صغير قابلنا صاحب السيارة.. هو شاب مهذب مريح لكنه ملول قليلا

ويبدو أنه يريد الانتهاء من هذا كله بسرعة.. فتح لنا المرآب الصغير تحت بيته لنرى تلك التحفة البراقة التي تنتظرني. وكان أول سؤال وجهته له هو عن سبب بيع السيارة بهذا الثمن المزري... قال وهو يحك رأسه مفكرًا:

-"إنها سيارة أبي، وقد ابتاعها وتوفي قبل أن يقودها.. أنت تعرف هذه القصص.. إنها طبيعة التشاؤم والتفاؤل الكامنة فينا.. فجأة لم أعد أطيقها.. لا أريد أن أضع قدمي فيها. "

-"ما زال بوسعك أن تبيعها بثمن مرض.. "

هنا سمعت صديقي يطقطق بلسانه.. يريد أن أقول لي ألا أفتح عيني الشاب على حماقته، وهذا شيء يثير غيظي فعلاً.. كأن الفتى لا يعرف أن السيارة رخيصة جدًا.. فلو تكلمت أنا لأفاق وطلب مائة ألف جنيه فجأة..!... لقد تجاوزنا مرحلة إخفاء الأفكار هذه.. يجب أن يعرف أنني أشك فيه..

كان صديقي قد فتح السيارة وراح يفحص المحرك ثم دار حوليه وألقى نظرة على القوائم. وقبل ان أفهم ما يحدث كان قد وقع بساحة الأقدام تحت السيارة وغاص هناك.

نهض أخيرًا وقد غرق في العرق. وانتحى بي جانبًا ليهمس:

-"إنها ممتازة!... فعلاً لا أفهم.. أريد أن نرى الرخصة.."

كأنما سمع الشاب ما نقول، هتف وهو يناولني الرخصة:

-"هذه هي.. هناك كذلك شهادة بيانات صادرة عن إدارة المرور.. كل الورق سليم"

كانت السيارة التي جئنا بها واقفة. فقال (صلاح) وهو يمد يده طالبًا المفاتيح:

-"هل تسمح لنا؟"

وبلا مناقشة كنا نركب السيارة الأوبل وننطلق في الشوارع. (صلاح) لا يكف عن الدهشة.. لا يكف عن طقطقة لسانه.. كلما سألته عن المشكلة قال إن السيارة تحفة.. إنه منزعج لأنه لا توجد مشكلة... لقد اعتاد أن يُخدع حتى صار يعتبر عكس هذا إهانة..

في النهاية أطلق سبة وقال لاهثًا:

-"السيارة ممتازة.. لا شك في هذا."

-"والخدعة القذرة؟.. أين هي؟"

-"المفاجأة أنه لا توجد خدعة قذرة.."

-"وأنا لن أشتريها.. لقد غيرت رأيي!"

من الغريب أن ثقته هذه جعلتني زاهدًا كل الزهد في السيارة.. الحياة تتحرك بمنطق علمي ونفعي واضح. فلا يمكن أن تبني نظرياتك أو تعاملاتك على أساس أن الكون مليء بالأخيار الذين يبيعون سيارة ممتازة بأقل من عشر ثمنها..

قال لي في غيظ:

-"لهذا لا يجمع أمثالك ثروات أبدًا، لأنهم عندما تأتيهم الفرصة يضيعون الوقت في السؤال.. هل تسمح لي إذن بأن اشتريها أنا؟"

وافقت بلا تردد كبير.. الصفقة بسرعة وتم الاتفاق على عمل توكيل يسمح لـ (صلاح) بالبيع، لكننا لاحظنا أن السيارة انتقلت بعدة توكيلات من يد ليد.. لم تبق السيارة مع أي مالك لها أكثر من شهر واحد.. لماذا؟

قال لنا الشاب وهو يعد رزمتي النقود أمامه:

-"هكذا يفعل الكثيرون.. يوفر عليك نفقات التسجيل.. مهندس (صلاح) يفهم هذه الأمور.. "

وهكذا عدت لداري محتفظاً بمالي وترددي. على أن الفضول كان يغلبني لذا اتصلت بصديق لي في شرطة المرور.. رتبة عالية فعلاً يمكنها أن تحقق أشياء كثيرة.. سألته إن كان يعرف أية معلومات عن تلك السيارة، فوعد بأن يبحث عن بياناتها ويتحرى عنها..

بعد يومين اتصل بي (صلاح).. هذه المرة لم يكن صوته ينبض بتلك الفرحة المتفجرة المعتادة فيه.. أدركت أن هناك مصيبة ما.. سألته:

-"هل اكتشفت الخدعة؟"

قال بلا استعداد للمزاح:

-"المصائب تنهال علي منذ يومين.. توفي عمي.. أصيب ابني في حادث.. سرقت سيارة أخرى كنت أنوي بيعها.. حرارتي عالية جداً.. هذه السيارة غير طبيعية.. أقسم على هذا.. والأدهى أن

صوتاً في نفسي يقول لي: بعها.. بعها.. جد لها مشترياً سواك!"

-"ألم تحاول إرجاعها لصاحبها؟"

-"صاحبها لا يرد على الهاتف مهما حاولت ومن عدة أرقام مختلفة.. "

وضعت السماعة حائراً.. أنت تعرف هذه القصص.. السيارة التي تغرق صاحبها بالكوارث. وهذا شيء لا أجد فيه إلا لعباً عنيفاً على قانون المصادفة.. على كل حال اتصلت بصديقي رجل الأمن، فهلل كثيراً إذ سمع صوتي.. استغرقت وقتاً حتى أعدته لعالم السيارة وتذكر ما كان ينوي قوله لي:

-"هناك سيارات نحس بطبيعتها.. كل من ابتاع هذه السيارة أصيب بمصائب لا نهاية لها. فلا يجد حلاً سوى أن يبيعها لأول أحمق يقابله بأي سعر.. أعتقد أن سمعتها صارت سيئة جداً كسمعة فتاة الليل. ولا شك أن أحداً ما كان ليشتريها في (المرج) لذا اضطر صاحبها لنشر إعلان عنها.. "

-"وهل تصدق هذه السخافات؟"

-"أنت تعرف هذه القصص.. لا يمكنك أن تنفيها أو تثبتها

بقلب مستريح أبدًا.. نصيحتي الوحيدة هي ألا تبتاعها لو كانت معروضة عليك.. "

هنا كان الدم يتصاعد إلى رأسي.. هذا كلام فارغ.. أنا أعرف يقينًا أنه كلام فارغ.. سيارة ممتازة كهذه سوف تتحول إلى كومة من الصدأ بسبب خرافات أغبياء..

سوف اشتريها!.. لم لا؟؟.. منطقي يقول إن شيئًا لن يحدث.. سوف أبرهن للجميع على أنهم حمقى.. رفعت سماعة الهاتف وطلبت (صلاح) وقلت له في ثبات إنني أريد شراء السيارة بذات السعر الذي دفعه.. إن لم يكن أنا فمن؟.. وإن لم يكن الآن فمتى؟.. قال لي في رعب:

-"لكنك تعرف ما حدث.. وما سيحدث"

-"لهذا أنا مصر على شرائها كما حدث منذ أيام.. اعتبر أن شيئًا لم يتغير.. هذا لن يعيد عمك للحياة لكنه سوف يريح بالك.."

واتفقنا على أن يجلب لي توكيلاً غدًا.. هذا توكيل آخر يضاف لكومة التوكيلات حتى صار الأمر يشبه دليل الهاتف.. وفي الغد التقينا.. كان شاحبا زائغ العينين.. ناولني المفاتيح والتوكيل

ثم تناول رزمة المال مني وراح يعدها في نهم، وهو يؤكد أنه يثق بي تمامًا فلا داعي للعد..

سألني وهو يدس المال في جيبه:

-"ولكن.. في رأيك ما سبب النحس اللاصق بتلك السيارة؟"

-"أنا لا أعتقد أن نحسًا يلتصق بهذه السيارة.. "

وأوصلته بالسيارة لداره حيث تنتظر تحتها ثلاث سيارات تنتظر البيع.. تمنى لي بصوت مبحوح حظًا سعيدًا.. وتنهد الصعداء..

حسن.. أنت تعرف أنني فقدت ابن خالتي في حادث أليم.. وتعرف قصة النوبة القلبية التي أصابتني وكادت تودي بي.. تعرف أن زوجتي أصيبت بداء السكري... وتعرف أن هذا كله حدث خلال أسبوع..

أنا لا أؤمن بالنحس.. هذه مصادفات غريبة.. لكني بالفعل لم أعد أطيق هذه السيارة..

نفسي تحدثني بأن آخذها للصحراء في بقعة نائية

وأحرقها.. أو آخذها إلى وكر لصوص سيارات يمزقونها إربا.. لكني أشك في أن يؤدي هذا لشيء.. لابد من أن تباع..

لكن يجب أولا أن أعرف من (صلاح) إن كان حظه قد تغير ببيع السيارة فعلاً.. ربما استمر النحس وبالتالي هي بريئة تماما..

اتصلت به عدة مرات فكان الرد دوما إن هذا الرقم لا وجود له.. ماذا حدث؟

ذهب لبيته فاكتشفت شيئا مثيرا.. لا يوجد هنا شخص اسمه (صلاح الخطيب) ولم يسمع أي من الجيران بهذا الاسم.. هناك أسرة لطيفة تقيم في العنوان المذكور منذ عشرة أعوام.. كلما سألت شخصا عن (صلاح) صديقنا المشترك قال إنه لا يذكر من هو..

لقد اختفى صلاح من عالمي تماما... كأنه لم يوجد.. تم تنظيف آثاره من على سطح الأرض حتى لا أقدر على إعادة السيارة له..

وهنا تذكرت في رعب.. (صلاح) – عندما كان موجودا – لم يستطع قط الاتصال بذلك الشاب.. طبعا لو ذهبت إلى المرج لما وجدت بناية أصلا في ذلك المكان.. هكذا لا يصير أمامي من حل سوى ان

أبيع السيارة لشخص جديد.. هذه السيارة تسمح بأن تثير رعب الناس وتحرك أسوأ ما فيهم.. هكذا يتحول كل واحد إلى ذئب يريد خداع الآخرين بأية طريقة لينجو هو.. هذه السيارة هي الانتصار الأعظم للشيطان ولمبدأ (نفسي نفسي).. ولو بعت السيارة فلن يسمع مني أحد شيئا كأنني لم أوجد قط..

ما هذا الكلام؟!.. هل جننت؟

على كل حال لنتكلم في أشياء عملية أكثر: هذا الإعلان سيثير اهتمامك.. سيارة أوبل موديل 1996 بحالة ممتازة.. بسعر ألف جنيه فقط.. لا تتساءل عن السبب ولا تصغ للسخف الذي يقال هنا وهناك.. أنت تعرف هذه القصص.. اتخذ قرارك بسرعة واجلب المال معك... فالفرصة لا تأتي مرتين.

مراد يبحث عني

عرفت (محمد سليم) الجراح البارع لفترة لا بأس بها، وما جذبني له أصلاً ليس أنه أجرى لي جراحة ناجحة مجانية لاستئصال الزائدة، بل لأنه كذلك كاتب قصصي موهوب.. هناك

طابور لا ينتهي من الأطباء الأدباء، وهي ظاهرة عجيبة حقًا. على أن (محمد سليم) كان يكتب طرازًا خاصًا جدًا من القصص البوليسية التي لها أساس طبي ما. في الغرب يطلقون على هذا النوع اسم Medical thriller أو (قصص طبية مثيرة).. وهذا الطراز من القصص لا يروق للنقاد طبعًا، فهم لا يقرءونه أو يقرءونه ليهاجموه.. لهذا كان يحمل مرارة لا بأس بها ضد النقاد..

لن أحكي أكثر، بل أحيلك إلى هذا الخطاب الذي وصلني من د. (محمد سليم) والذي قررت أن أضمه في الصندوق:

"لم أحب شخصًا – أعترف – كما أحببت (مراد الشربيني)..

إنه ذكي يعج بالكثير من روح الدعابة.. وهو خفيف الحركة وله عقل لا يهمد لحظة واحدة..

إنه وسيم.. لو أردت أن أقرب لك شكله فلتتخيل (جورج كلوني) مع لمسة بسيطة من (بيرس بروسنان).. هذا على النقيض التام من شكلي الذي هو خليط من (إسماعيل يس) و(علي الكسار)..

لكنني لم أحقد قط على (مراد) بينما الحسناوات يمطرنه برسائل الحب.. إنني أشعر نحوه بأنه ابني أو أخي..

كان صادقًا.. وكان من الطراز العملي الذي لا يضيع الوقت في التفاهات.. إنه جراح من أبرع جراحي مصر.. لكنه لم يمارس الجراحة منذ دهور.. لماذا؟

السبب يشبه قصة (الهارب) الشهيرة التي تحولت إلى مسلسل أثار جنوننا إعجابًا في ستينات القرن العشرين.. لقد وجدوا زوجته ميتة... مقتولة إذا أردت الدقة.. هناك من انتزع طحالها بدقة جراحية غير عادية وإن كان لم يخط الجرح ولم يربط شريان الطحال ولا وريده.. هكذا وجدوها...

أين (مراد)؟.. ليس موجودًا.. لقد اختفى..

كنت أنا طبيبًا وأعرف بالضبط معنى أن يفتح الجرح بهذه النظافة وأن يتم شق كل طبقات البريتون هذه.. هذا رجل يعرف ما يفعله.. هذا جراح...

هكذا بدأت قصة (مراد) مع الهرب.. والمزيد من الهرب..

لم أكن أصدق ما يقولون عنه في البداية، إلا أنني رحت أتابع في ذهول جرائمه المستمرة.. كلها جرائم طبية.. حقن سموم.. القناة الوريدية التي غرسها في وريد صديقه فراح الدم يغادر جسده المقيد في بطء.. عمليات غرس الإبرة في مؤخرة العنق.. إدخال إبرة هواء بين الضلوع ليمتلئ الغشاء البلوري بالهواء ويموت المريض مختنقًا.. كل هذا... فلم يعد لدي شك في شخصية قاتل الزوجة .

ولطالما رحت أتساءل عن السبب الذي جعل (مراد) الناجح يتبدل بهذا الشكل.. ما الميول المرضية الكامنة التي انطلقت من عقالها؟.. لماذا انطلقت؟

أثبت لي البحث في تاريخ حياته أن زوجته لم تكن تحبه بينما أحبها بشدة.. لابد أن هذه كانت البداية.. لابد أن نفسيته كانت مضطربة أصلاً فلم تتحمل هذه الصدمة..

هكذا قرر أن يحارب المجتمع وكانت أداته طبية.. القاتل الطبي.. السفاح الذي يملك أنامل جراح..

يقولون عن (جاك السفاح) الذي روع (لندن) وفتك بعدد

كبير من فتيات الليل فيها فلم يقبض عليه رجال الشرطة، يقولون إنه كان يملك دقة تشريحية شديدة.. ولهذا رجح البعض أنه كان طبيبًا.. وفي فيلم (من الجحيم) تمادى الكاتب أكثر فجعله الطبيب الخاص لملكة إنجلترا (فكتوريا)..

كان هناك رجل شرطة هو العقيد (شوكت).. إنه رجل شرطة جدير بالقصص، من الطراز الذي لا يكف عن اقتفاء أثر المجرم ولا ييأس أبدًا..

هكذا تكررت قصة حلقات (الهارب) تقريبًا فيما عدا أن د. (كميل) كان بريئًا ، أما هنا فأنا أعرف يقينًا أن (مراد) هو القاتل..

إن (مراد) يتنقل من بلدة لأخرى، ومن ورائه العقيد..

(مراد) لا يترك فرصة للفتك بضحية غافلة من دون أن يفوتها.. والعقيد يجمع الأدلة ويحاول استنتاج مكان (مراد) القادم...

من أين ينفق؟... إنه كان ثريًا فلابد أنه سحب كل ماله من المصرف.. لابد أنه يظهر كل يوم في بلدة جديدة ويكون صداقات وعلاقات حتى يقع اختياره على الضحية التالية..

قال لي أستاذ (عزمي) وهو يشعل غليونه:

-"التغير في شخصية (مراد) غريب وغير مبرر.. لقد حدث فجأة ولم نستشعر الجذور التي يمكن أن تقود لهذا.. "

قلت له:

-"لن أدعي الحكمة بأثر رجعي... ربما لو عدنا لطفولته وجدنا صدمة ما.. إن هذا يدعى بـ (شخصية ما قبل المرض).. ثم تأتي الصدمة فيأتي المرض.."

لكنه لم يبد مقتنعًا..

وقال لي أستاذ (رأفت):

-"المشكلة أن صاحبك جذاب.. جذاب أكثر من المعتاد بمراحل.. هذه نقطة خطرة"

قلت له باسمًا:

-"هذه مشكلة دائمة.. شخصية الشرير تبدو أكثر حيوية وتدغدغ رغباتنا الخفية، بينما الشخصية الخيرة تبدو مسطحة.. ألم تر الأفلام الدينية القديمة؟... تبدو شخصيات (أبو لهب) وسواه أكثر إثارة من شخصيات المؤمنين الذين يختارون لهم ممثلين رديئين على الأرجح.. لهذا لا نصدقهم"

قال في شك:

-"لكن هذا يضع سابقة مقلقة.. "

ولم أعترف بالحقيقة..

أنا لم أتوقف لحظة واحدة عن حب (مراد)... كنت معجبًا به بشكل ما، وبدا لي هذا الذي يفعله نوعًا من شقاوة الصبية.. صبي يريد أن يمرح بقتل الناس فلنتركوه يمرح..

لكنه اليوم اتصل بي..

أخبرني أن ما بيننا انتهى، وأنه قادم..

قادم من أجلي أنا بالذات!!..

-"مراد.. لماذا تفعل ذلك؟"

-"لأنك متهم مثل سواك.. هذه الحياة لم تخلق لي ولم أخلق لها.. "

-"وهل أنا من قتل زوجته؟"

-"وهل أنا من فعل هذا؟"

ثم وضع السماعة دون أن يسمح لي بكلمة أخرى..

لم أصدق ما سمعته على الهاتف....

جريت إلى حيث كانت زوجتي تشاهد التلفزيون، فأخبرتها برعب أن (مراد) اتصل بي.. لم تعلق.. قلت لها إنه قادم من أجلي، فقالت وهي تقزقز حبات اللب بلا اكتراث:

-"حان الوقت كي ينتهي هذا الخبال.."

وعندما جاء المساء كنت متوترا.

خرجت إلى شوارع المدينة المظلمة.. من الممكن ان اتصل بالعقيد (شوكت) ليكلف رجاله بحمايتي، لكن جزءًا من ذاتي ظل يرفض هذا.. (مراد) جزء من عالمي ولن اقبل أن أسلمه لأحد. منظره بالأصفاد لن يفارق أحلامي للأبد

ماذا أفعل؟... أفر إلى بلدة أخرى؟

ثم تعال هنا.. لماذا يريد أن يأتي لي بالذات؟؟.. لهجة التهديد واضحة.. هو يريد أن يفتك بي.. لكن لماذا؟.. أعتقد أنني أعرف السبب...

انطلقت إلى شقة الأستاذ (عزمي) وقرعت الباب ففتح لي بلا

مودة.. وكان يدس الغليون في فمه وينفخ سحابًا كثيفًا خانقًا..

دخلت وجلست هناك.. أخبرته ان (مراد) قادم من اجلي وأنني لا أعرف ما أصنع..

هز رأسه مفكرًا ولم يعلق... نهض إلى المطبخ ليعد لي شيئًا أشربه.. كلهم لا يعلقون كأن الأمر لا يعنيهم.. مشكلة عويصة فعلا..

عندما تأخر في المطبخ نهضت إلى هناك فوجدت المشهد المخيف..

(عزمي) ملقى على الأرض أمام باب الثلاجة المفتوح.. هناك إبرة مغروسة في مؤخرة عنقه.. ومن الواضح أنها قطعت الحبل الشوكي..

طريقة القتل المفضلة لدى (مراد)..

لقد جاء (مراد) هنا.. إنه في الشقة الآن فهل يفتك بي؟

كاد قلبي يتوقف..

رحت أركض نازلا في الدرج وأنا أمنع نفسي من الصراخ..

سوف أتوارى في داري.. سأحول الشقة إلى قلعة حصينة..

لماذا تفعل بي هذا يا (مراد)؟.. لماذا؟... كنت معجبًا بك منذ البداية...

في البيت كان المشهد المفزع ينتظرني...

زوجتي التي كانت جالسة تشاهد التلفزيون عندما خرجت، قد ثبت أحدهم إبرة في وريدها. وكانت هذه الإبرة تنزف بلا انقطاع.. لقد فارقت الحياة ومن الواضح انه خدرها قبل تثبيت الإبرة..

(مراد) كان هنا وهو يمارس ذات أساليب القتل التي اعتاد أن ينفذها.. إنه جاء لينتقم مني فلما لم يجدني قرر الانتقام من أقرب الناس لي..

سأطلب الشرطة..

لن أنتظر حتى أكون أنا الضحية التالية....

عندما يأتي رجال الشرطة سأخبرهم أنني (محمد سليم) الجراح والكاتب المعروف... سأخبرهم أن قصصي كانت تدور كلها

حول (مراد) الجراح القاتل الذي يقتل ضحاياه بطريقة طبية. وكيف كان المقدم (شوكت) يطارده... سأخبرهم كيف اتصل بي (مراد) من عالم الخيال ليخبرني أنه يكرهني ويكره الحياة العسيرة التي اخترتها له على صفحات الكتب.. قال لي إنه لا يجد مبررًا واحدًا في شخصيته يبرر تحوله إلى سفاح.. اتهمني بأنني كاتب رديء سطحي وأنني جنيت عليه للأبد هو الذي فعل كل ما يستطيع كي يكون محترمًا..

سأخبرهم كيف أنه غادر قصصي إلى العالم الخارجي وصار له وجود ملموس...

سأخبرهم كيف انه بدأ بقتل النقاد الذين لم يعجبهم عملي.. مثل (عزمي) و(رأفت) الذي سيجدون جثته منزوعة الطحال في مكان ما... (عزمي) قال إن تحول الشخصية غير مبرر.. كلهم يقول هذا، و(رأفت) قال إنني أعطي قدوة سيئة للصغار.. كان تهديده خطرًا لأنه قد يؤدي لتوقف كتاباتي أصلاً... هكذا قتلهما (مراد) ثم قتل زوجتي لأنه يكره الزوجات جميعًا.. كل هؤلاء قتلهم بالأساليب الطبية التي اخترعتها أنا وعلمتها له...

سأخبرهم أن سلسلة قصصي البوليسية التي أحبها القراء قد انتهت.. انتهت لأن البطل قرر أن يخرج لعالم الواقع ليقتل المؤلف وزوجته والنقاد...

لكن رجال الشرطة يصغون ولا يعلقون.

أسألهم عن العقيد (شوكت).. هو وحده من يقدر على تقدير الأمر حقاً..

يقول لي ذلك العميد الذي يدخن بشراهة:

-"ليس لدينا عقيد اسمه (شوكت).. أرجو أن تفيق قليلاً وتعود لعالم الواقع.. "

يقولون إنني جننت.. يقولون إنني قاتل زوجتي والناقدين، لأن بصماتي على القناة الوريدية والإبرة.. يقولون إنني خلطت بين شخصيتي وشخصية بطل قصتي.. شخصيتي المعقدة المريضة قد وجدت لنفسها مخرجاً في هذه القصص، لكن مع الوقت صارت الحاجة ملحة للقتل بدلاً من الكتابة عنه....

يقولون وما أكثر ما يقولون....

إن (مراد) حر طليق بينهم... فلينتظروا قليلاً.. وسوف يعرفون من هو المجنون هنا."

د. (محمد سليم)

بقعة حبر

يمكنك الآن أن تنظري يا (دينا)..

أرجو أن تكوني مستريحة في جلستك هذه. فالاسترخاء مهم جدا عندنا.. اعرف انك ترتاحين كثيرا لوجود د. محفوظ

صديق أبيك هنا.. إنه رجل ظريف فعلاً وصداقتي به قديمة جداً.. لو عددت كم مرة قرأت اسم د. (مصطفى) الطبيب النفسي في مذكراته، لعرفت أن علاقتنا حميمة فعلاً..

لا تتضايقي من جهاز الكاسيت الذي يدور، فهذا النوع من الجلسات يحتاج لاسترجاع كل كلمة وكل مقطع قيل فيها..

الآن خذي نفساً عميقاً..

أنت تتحدثين عن هواجس.. هناك تلك الوحوش الغريبة التي تلاحقك كلما أغمضت عينيك تأهبًا للنوم.. فجأة تصير أحلامك كلها مجموعة من الوحوش تريد الظفر بك.. هذا ليس معتادًا مع فتاة في سنك – الرابعة والعشرين – ومثقفة تخرجت في كلية الحقوق، وقد تكرر الأمر كثيرًا جدًا على عدة ليال، لهذا فكر أبواك في أن يأخذا رأيًا.. رأي د. محفوظ.. لا أعرف سبب هذا التفضيل وما هو دور د. محفوظ في هذه القصة.. لكنه فكر في الشيء الصحيح وطلب لقائي..

أنت تؤكدين أن حياتك هادئة ولا توجد مشاكل.. ربما هناك تلك القصة الفاشلة مع الفتى الذي كنت تميلين له – وهي أشياء لا

يعرفها أبواك – لكن القصة انتهت. ولا يمكن في رأيي أن تسبب لك رؤية كل هذه الوحوش..

الاختبار الذي سنقوم به يقوم على أن أريك بعض البطاقات، ثم أسألك عن انطباعك عن الصورة التي ترينها في كل منها..

سوف تمسكين ببطاقة وتقولين لي ما ترين بالضبط.. لا أريد تفكيرًا طويلاً.. قولي أول ما يخطر ببالك.. ماذا؟.. تريدين أن أقلب البطاقة؟.. جميل.. جميل.. هذا يدل على أنك ذات خيال خلاق ويجعلني أعرف الكثير عن شخصيتك وأعطيك درجات أعلى..

لا تحسبي ترتيب البطاقات عشوائيًا.. إنه ترتيب مقدس صارم. لكننا نحتفظ بالأسرار لأنفسنا حتى لا يعرف المريض سر اللعبة.. أعذريني لأنني أجلس خلفك وأمسك بالساعة.. هذا شيء مفهوم لأنك لا يجب أن تري تعبيرات وجهي فقد تقودك للإجابة الصحيحة..

تقولين إن هذه صورة بقعة حبر؟.. أنت ظريفة فعلاً.. هي بقعة حبر فعلاً لكن بم توحي لك؟.. هذا هو السؤال..

تبدو كوطواط؟.. لا بأس.. إجابة معقولة وشائعة..

هذه البطاقات – وعددها عشر في الأغلب – تشكل إحدى الموضات القديمة في التحليل النفسي.. اسمها (اختبار رورشاك).. إنها ترجع للطبيب النفساني (هيرمان رورشاك) الذي ابتكرها عام 1921. وعلى العموم هي قد تطورت فيما بعد لتصير ما يطلقون عليه (نظام اكسنر). يرى المريض البطاقة التي عليها بقعة حبر معينة ويصف ما يتخيل أنه يراه..

هناك طريقة لوضع درجات ابتكرها (رورشاك) ذاته.. المهم هنا أن يراجع المريض نفسه ويذكر بالضبط ما الذي جعله يرى ما رآه في البطاقة..

بعض العلماء لا يؤمنون بهذه الطريقة ويعتبرونها علمًا زائفًا.. وهناك مشكلة التباين بين مفسر وآخر.. أي أن هناك من سيعتبرك مريضة نفسيًا ومن سيعتبرك سليمة كالجرس.. لكن من الواضح طبعًا أنني أثق بهذه الطريقة وأميل لها..

الآن شاهدي هذه البطاقة.. ماذا ترين؟

ترين راقصة باليه.. جميل.. جميل..

وهذه؟

وجهان متقابلان.. أو مزهرية.. لعل هذه أشهر بطاقة يعرفها الناس.. أنت ترين وجهين متقابلين، ولهذا دلالة مهمة عندنا.. لكن لن أشرح لك أسرارنا بالطبع وإلا لصار الاختبار بلا قيمة..

وهذه؟.. ماذا بك؟.. لماذا نهضت خائفة؟.. لماذا تبدو هذه النظرة في عينيك؟.. لماذا تقفين وظهرك للجدار؟.. أنا لم أر شيئًا غريبًا..

(دينا) يا صغيرتي.. حاولي أن تتماسكي..

تقولين إن هذا الوحش يظهر في كوابيسك؟.. لكنني لا أرى وحشًا.. هذه بقعة حبر غريبة الشكل يراها البعض قريبة جدًا من السنجاب.. هلا هدأت من فضلك؟

قل لها شيئًا يا دكتور محفوظ.. إنها تثق بك....

(دينا) يا صغيرتي.. هذا هو ما يسمونه Pareidolia.. أي أن عقلك الباطن يجد صورة غريبة، فيخترع تفسيرًا بصريًا لها.. أنت تبحثين عن شماعة لمخاوفك فلا تجدين سوى أن تعتقدي أنك ترين هذا الشيء..

أعتقد أنني غير قادر على استكمال الاختبار بهذه الطريقة.

سوف نستكمله فيما بعد..

* * *

دينا يا صغيرتي..

لقد حاولت جاهدًا أن أجد تفسيرًا لهذا الفزع. أعرف أن بقع الحبر التي ابتكرها الخواجة (رورشاك) ليست مبهجة المنظر.. بالفعل هي تبدو كالعفاريت كما اعتدنا أن نتخيلها، لكنك إنسانة عاقلة ناضجة..

أنا د. (محفوظ) صديق أبيك المخلص، وقد أقنعت أباك بأن يتركنا معًا وحدنا.. تكلمي.. ما الذي يثير رعبك لهذا الحد؟.. ألاحظ أنك تضمرين يومًا بعد يوم وتزدادين شحوبًا.. لو شئنا الدقة لقلنا إنك أنت نفسك تتحولين إلى شبح.. ما سبب مخاوفك؟.. هل

تخشين الغد؟.. كلنا ذلك الرجل.. هل كنت تحبين ذلك الفتى فعلاً؟.. الفتية لا أكثر منهم في السوق ولا أرخص.. لو أنني مددت يدي في الشارع إلى الإفريز لالتقطت خمسة عرسان أفضل منه وأجمل وأكثر ثراء ولطفًا..

تقولين إنك تخشين الظلام ولا تريدين أن أتركك وحدك..

سيكون هذا صعبًا بصراحة.. لدي بيتي وأعمالي..

هذه الأقراص أعطانيها د. مصطفى سوف تمنحك نومًا عميقًا.. هيا.. اشربي كوب الماء هذا.. منذ كنت طفلة وأنا أحب هذه الجبهة العريضة البارزة وهذا الأنف المدبب.. يشعرانني بأنك نبيلة راقية.. الآن تصبحين على خير..

ماذا؟.. لا تريدين ترك يدي؟

أنت تتحولين إلى طفلة تدريجيًا.. هذا لا يمكن.. يجب أن تكوني أعقل.. لكن..

(محيي).. ابنتك تريد أن أقضي الليلة هنا بجوارها في الغرفة.. تريد أن أكون جالسًا هنا لحمايتها.. لا أعرف كيف

أتملص من هذا..

أعرف أنها بمثابة ابنتي.. ليست هذه هي المشكلة.. لكن لدي بيتًا وأعمالاً يجب أن أقوم بها... تقول لي إن بوسعي البقاء؟.. بل يبدو أنك تطالبني بهذا فعلاً...

ليكن.. سأجلس على هذا المقعد وأقرأ هذا الكتاب، لكني بحاجة إلى أن تكون أنت معي، كما أطالب بكثير من الشاي الثقيل لأظل ساهرًا.. لقد نامت المسكينة.. الأقراص بدأت تعمل بلا شك..

ممتعة هذه الجلسة فعلاً.. تذكرني بجلسة البارون (فان هلسنج) في غرفة الفتاة (لوسي) بانتظار قدوم مصاص الدماء من النافذة.. لقد وضع صليبًا على صدرها وعلق الكثير من حزم الثوم.. لكن الفتاة صحت وهو نائم وانتزعت الصليب وتخلصت من الثوم.. هكذا استطاع دراكيولا أن...

الواقع أن... هل نمت أنت أيضًا؟.. يا لك من أب غريب!..

أشعر بعدم راحة.. ليس من الجميل تذكر قصة دراكيولا الآن..

لكن.. ما هذا الظل على الجدار فوقنا؟.. كأنها بقعة ماء تبلل السقف.. لكن لو دققت لخيل لك إنك ترى وطواطًا عملاقًا.. إنه يتحرك!... أعرف أنني أهذي لكن البقعة تتحرك فعلاً..

ما هذا؟.. هناك بقعة عملاقة على الجدار المقابل.. جوار خزانة الثياب.. تبدو لي كقنفذ عملاق.. هناك بقعة تبدو كوحش أسطوري ذي جناحين..

إن هذه الأشياء تتحرك.. أنا متأكد من ذلك.. إنها ترقص رقصة مجنونة..

لو أردت رأيي لقلت إن هذه البقع تشبه بقع الحبر على بطاقات (رورشاك) هذه.. استيقظ يا (محيي).. ويلك!... أريد من يؤكد لي أنني لست مخبولاً. لابد أن السهر أثر فيّ.. لكن.. هذه الأشكال تتحرر من الجدار.. لم تعد بقعًا.. إنها تلف وتدور.. دوامة مرعبة من حولي.. كانت عند أطفالي لعبة تشبه الأرجوحة الأفقية Carousel في الملاهي، وكانت تدور حول رءوسهم في المهد فترسم ظلالاً عملاقة متحركة على الجدران.. هذا التأثير قريب من ذلك..

إذن ابنتك لم تكن ترى كوابيس.. هذا هو ما يحدث في غرفتها فعلاً!.. كل ليلة تصحو هذه الأشباح وترقص رقصة مجنونة حولها وفي النهاية تفيق المسكينة وتصرخ.. لهذا صدمت وأصابها الرعب عندما رأت بطاقات (رورشاك).. لقد رأت كوابيسها مرسومة على الورق.... لكنها الليلة نائمة بعمق كما يبدو بسبب الأقراص المنومة...

(محيي)!.. ماذا دهاك؟.. لماذا لا تفيق؟

(محيي)!.. أنا خائف!... سوف أغادر الغرفة..

هه هه!... لقد التقطت أنفاسي... سأعود للغرفة وأطمئن...

ماذا؟.. (محيي).. استيقظ يا أحمق!... أين (دينا)؟.. هي ليست في الفراش.. أين تلك الظلال الراقصة؟.. ابحث بعناية.. فتش في خزانة الثياب وابحث تحت الفراش.. أين (دينا)؟.. لا تنظر لي لأنني لا أعرف.. لقد خرجت لثوان من الغرفة.. مستحيل أن تكون قد فرت بهذه السرعة، بعك من أنني كنت أقف على الباب..

فتش.. سأطلب الشرطة..

يجب أن نجدها.. يجب...

....

صباح الخير يا دكتور (مصطفى)... أنت تعرف أن (دينا) اختفت في ظروف غامضة بينما كنت أنا وأبوها في غرفة نومها.. لقد عشت هلوسة بصرية فظيعة وأنا ساهر جوارها.. رأيت وحوشا ومسوخا ترقص رقصة مجنونة في سماء الغرفة..

هل تعتقد أن الهلوسة معدية؟.. كيف تفسر أن أهذي بذات ما هذت به الفتاة؟

فعلاً أنا عاجز عن الفهم.. لقد كانت تعيش هذا العالم لمدة سنة كاملة، لكنها لم تصح هذه المرة، فهل لهذا علاقة باختفائها؟

هل تعرف ما أفكر فيه؟.. لقد هزلت الفتاة وشحبت ورق جلدها.. كنت كلما رأيتها خطر لي أنها تحولت إلى شبح.. يبدو لي أن هذا حدث حقيقة لا مجازا.. الفتاة صارت شبحا وانضمت لتلك

الظلال الراقصة في غرفتها. لقد تم هذا بسهولة لأنها كانت معدومة الإرادة تحت تأثير أقراصك المنومة..

أنت لا تصدقني.. تعتقد أنني مخرف.. لكن.. سأكون على حق إلى أن تظهر الفتاة لتشرح لنا سبب هروبها..

كانت ترى تلك الأشباح الشبيهة جدًا بمجموعة أوراق (رورشاك) هذه.. نفس بقع الحبر لكنها حية تتحرك وتطير في الهواء وتهجم عليك..

دعني أتفقد هذه البطاقات اللعينة.. هذا الوحش رأيته.. هذا المسخ كان هناك... وهذا..

ولكن.. لم أر بقعة الحبر الغريبة هذه من قبل.. هل ترى هذه البطاقة؟.. يخيل لي كأن هذه الصورة تمثل فتاة ذات جبهة عريضة بارزة ولها أنف مدبب..

متى جاءت هذه البطاقة؟.. لم أرها قط من قبل.

أنت كذلك لا تعرف عنها شيئًا؟.. غريب...

ولكن.. د. (مصطفى)... لقد عددت إحدى عشرة بطاقة...

ألم تقل إنها عشر بطاقات لا أكثر؟... من أين جاءت هذه البطاقة الزائدة؟؟

هولو كوست

لم أكن قط من منكري المحرقة، فأنا أثق أن النازيين قتلوا

عددا لا بأس به من اليهود في الحرب العالمية الثانية. لكني كذلك

لا أعتقد أبدًا أن القتل بلغ هذا الحجم الذي يتحدثون عنه، ومنطقي الرياضي البسيط هو أن عدد اليهود قبل الحرب العالمية كان 11 مليونًا وظل كذلك بعد الحرب. فمتى أعدم ستة ملايين يهودي في غرف الغاز إذن؟.. معظم من تجاسروا على قول الحقيقة قدروا عدد من قتلهم هتلر بنصف مليون يهودي، وهو عدد أقل بكثير جدًا ممن قتلهم من الروس والغجر والبيلاروس.

طبعًا أنا هنا أتكلم براحتي، لكن تذكر أن من يجرؤ على قول أشياء كهذه في الغرب إنسان مقضي عليه.. لا مستقبل له وغالبًا سوف يقضي بقية حياته في السجن، ما لم يتلق علقة موت من المتعصبين اليهود.. عليك أن تؤمن بحدوث المحرقة، وعليك أن تؤمن بأنها وقعت حرفيًا بالطريقة التي يحكيها اليهود..

عرفت د. (ماكس فرايمان) من أبحاثه أولاً، فهو رجل مرموق في مجال الاستشراق.. ثم جرت بيننا عدة مراسلات، وفي النهاية اتفقنا على أن نلتقي في أحد المؤتمرات في بروكسل.. كان هذا في أواخر السبعينات من القرن الماضي..

لست ساذجًا بالطبع.. إن الاسم يهودي كشمعدان سباعي..

هذا عالم يهودي، لكن من قال إنني أرفض اليهود؟.. انا أرفض الصهاينة فقط.

وعندما قابلته في أروقة المؤتمر، بدا لي رجلاً ضئيل الحجم سقيمًا في الستين من العمر، يلبس نظارة سوداء لا ينزعها تقريبًا..

لم أر عينيه إلا مرة واحدة عندما دخلت الحمام وكان هو بالداخل يغسل وجهه أمام المرآة.. لا أعرف الغريب في عينيه لكن فيهما شيئًا غريبًا وربما كان منفرًا كذلك، لكني لم أفهم ما هو.. من الجلي أن الرجل يرى جيدًا وبوضوح، لهذا لم أهتم كثيرًا بالأمر.. انا نفسي لا تبدو عيناي على ما يرام بسبب إصابة بالتراكوما وأنا طفل...

لكن يجب أن أقول إن الرجل لبس عويناته بسرعة وفي ارتباك كأنما أنا ضبطته في وضع مشين..

دارت بيننا محادثات كثيرة، ولا شك في أنه حجة في مجاله، لكننا بالطبع اصطدمنا – كالعادة – عندما تكلمنا عن إسرائيل ومدى تمثيلها ليهود العالم.. تثير أعصابي الطريقة التي نصبت بها تلك الدولة نفسها وكيلا وحيدا عن اليهود و(ليست لنا

فروع أخرى)..

كان يتكلم في حماسة، ثم نزع نظارته أثناء الكلام واتسعت عيناه..

هنا لاحظت السبب الذي جعل عينيه مختلفتين.. إن كل قزحية كان لها لون مختلف عن الأخرى، دعك من أن اللون نفسه ليس متجانسًا في القزحية الواحدة.. بمعنى أن لون عينيه خليط من الأسود والأزرق والبني الغامق.. التأثير النهائي لم يكن محببًا على الإطلاق..

رآني أنظر له فقال بلكنته الأوروبية الشرقية الثقيلة:

ـ"أنت تنظر لعيني.. أليس كذلك؟.. شكلها غريب منفر.. "

لم أر نفعا من الإنكار ففضلت الصمت..

قال باسما:

ـ"هذه هي علامة الصداقة التي تركها البروفسور (منجيل) في عيني.. لي أخ توءم لم يظفر بهذا الحظ الحسن ومات.."

قلت له في رزانة:

ـ"للأسف أنا لا أعرف د. (منجيل) أصلاً.. "

ـ"هل رأيت؟.. أنت لا تعرف سوى جزء بسيط من الصورة، لهذا لا تقدر على الحكم.. "

(يوسف منجيل) – حسب ما قاله لي – هو د. (فرانكنشتاين) الحقيقي.. الطبيب المفضل لدى (أدولف هتلر) وخبير التعذيب النازي الأشهر. هذا الشيطان الوسيم ولد في بافاريا عام 1911 ودرس الفلسفة في ميونيخ والطب في فرانكفورت حيث أبدى ذكاء وبراعة. عام 1937 التحق الطبيب الطموح بالحزب النازي، ثم التحق بقوات الصاعقة SS الرهيبة عام 1938، وتطوع كي يعمل في معسكر (أوشفيتز) الذي كان اليهود يوضعون فيه، وهو مصدر كل حكايات المحرقة التي نسمعها اليوم. كان يتوق إلى أن يضع العلم في خدمة النازية.

لقد ألصقت قصص كثيرة بالرجل، لكن أسرى معسكر (أوشفيتز) كانوا يرونه يوميًا في الطابور وهو يقف والعصا في يده.. العصا التي تحدد مصيرهم.. يشير لهذه المجموعة كي تقف إلى اليمين وتلك كي تقف على اليسار.. معنى اليمين هو العمل في

المعسكر، واليسار معناه عدم الصلاحية للعمل والموت الفوري. في هذا الوقت كان عمره 32 عامًا وكان يضع الكاسكيت المميز لقوات الصاعقة بعلامة الجمجمة التي تقول إنه مصرح له بالقتل.

قال (فرايمان):

"أعرف هذا الطراز من البشر.. ثمة لمسة صبيانية سخيفة لا شك فيها في سلوكه. عندما كان يقف هناك.. كنت طفلاً لكني كنت أشعر بأنه فخور بمظهره الأنيق القاسي.. ما زلت أرى هذا المسلك في كل جنرال فخور بثيابه العسكرية.. أليس العسكريون مجرد صبية كبار؟"

كان (منجيل) متصلب الوجه بلا انفعال. لكن عينيه كانتا تلمعان حماسة كلما رأى توءمين. كان يأخذ التوائم ويقدم لهم الشيكولاته ويلاطفهم، حتى أطلقوا عليه اسم (العم منجيل). لكنه في اللحظة المناسبة كان يأخذهم إلى منضدة التشريح ويحقنهم – هكذا يقول اليهود – بالكلوروفورم في قلبهم ليقتلهم. ثم يبدأ التشريح.

على أن أهم ما كان يثير شغفه هو حقن عيون الأطفال

بالأصباغ ليرى إمكانية تغيير لونها.. لا أعرف نفع هذه التجربة ولا أهميتها لكنه كان مولعًا بها..

عامة يقدر اليهود عدد الأطفال الذين ماتوا في أوشفيتز بـ 1.2 مليون طفل. وكان لديه اهتمام خاص بالأقزام والمشوهين، لكنه كان يعمل من منطلق علمي ثابت هو ضعة وحقارة الأجناس غير الآرية.

يحب اليهود أن يؤكدوا أن النازيين قاموا بعمل تجارب عديدة عليهم باعتبارهم فئران تجارب بشرية، ومن ضمنها تجارب الحقن بالملاريا، والغمر في ماء مثلج لساعات طويلة – وهي تجارب تهم سلاح الطيران النازي – والتعريض لغاز الخردل السام، والتعرض للسلفا والتعقيم بالأشعة والحقن بالتيفوس وشرب كميات هائلة من مياه البحر..

طبعًا هناك قدر كبير من الدعاية اليهودية في هذا الكلام. تذكر قصة الصابون الذي قيل إن النازيين كانوا يذوبون اليهود ليصنعوه ثم تبين أن القصة هراء لا أكثر.. ترى كم من هذه القصص هراء بدوره؟

-"طبعًا هناك تجارب أكثر بشاعة لكن فقدنا الأوراق التي تتكلم عنها. لأن الرجل إذ شعر بقرب اندحار ألمانيا تخلص من معظم أوراقه ومن الشهود.. ثم إنه فر من ألمانيا كلها وما زال هاربًا.. هناك طبيب يهودي مجري يعتبر خبيرًا باثولوجيًا عمل معه كمساعد وعرف معظم ما قام به من تجارب"

ثم تقلص وجهه مقتًا وقال:

-"هذا الـ. هذا الـ.. مصاص الدماء هذا أفسد حياتي وملأها بالعقد.. بسببه كدت أصاب بالعمى وفقدت أخي، ولم أجد الشجاعة قط كي أكون أسرة، لهذا جعلت مهمتي في الحياة هي البحث عنه والانتقام.. "

قلت له في كياسة:

-"أعتقد ان الموت كان أسبق له.. ثم أين تتوقع أن تجده؟"

-"كل النازيين هربوا إلى أمريكا الجنوبية.. هذه قاعدة.. لقد قبض الموساد الإسرائيلي على نازي فظيع آخر هو (إيخمان) وهربه إلى إسرائيل حيث حوكم وأعدم.. أنا أعرف يقينًا أن (منجيل) موجود في الأرجنتين.. وسوف أجده.. "

قلت له باختصار شديد، إنه لو كان (يوسف منجيل) فعل هذا كله حقًا، فإنني أتمنى لهم حظًا سعيدًا في القبض عليه ومحاكمته بعيدًا عن إسرائيل، لأنني لا أعتبرها المتحدث الرسمي عن يهود العالم.. أما إن كانت هذه دعاية صهيونية مثل موضوع الصابون فأنا......

قال في غضب:

-"سوف ترى.. ستعرف أنها ليست دعاية.. "

انتهى المؤتمر وافترقنا.. ونسيت هذه المحادثة تمامًا..

إلا إنني في ذات يوم – بعد أشهر عدة – تلقيت رسالة من الأرجنتين، وأنا لا أعرف أي واحد هناك.. ففتحتها في فضول.. لن اندهش لو اتضح أن لي عمًا كون ثروة هناك وأنا وريثه الوحيد كما يحدث في الأفلام العربية.. كانت الرسالة تقول بالإنجليزية:

-"عزيزي بروفسور (محفوظ):

"بالطبع أنت لا تعرف أي شيء عني، لكن البروفسور (فرايمان) أعطانا العنوان وطلب أن نتصل بك. أنا د. (بابلو

ريكاردو) مدير مصحة نفسية في بوينس أيرس. لقد جاء البروفسور (فرايمان) إلى البلاد منذ فترة وقضى أيامًا يندمج بالحياة الاجتماعية ويحضر حفلات الجاليات الدبلوماسية. وفي الفترة الأخيرة تعرف بمجموعة من رجال الأعمال الألمان، وقام بزيارة لمزرعة مهاجر ألماني يدعى (فردريش مولر). على أن اللقاء تم في حفل كوكتيل حيث قام طرف ثالث بتقديمه للرجل.. ما حدث بعد هذا كان عجيبًا لأن البروفسور (فرايمان) أخرج من جيبه محقنًا وانقض على عيني الرجل كأنه يريد أن يفقأهما.. تدخل الموجودون وفصلوا بينهما، لكن د. (فرايمان) راح يعوي بطريقة غريبة جدًا كأنه ذئب، وتكور على الأرض وبدأ يمتص إبهامه. لم يقدم (مولر) أي تفسير. بينما قام رجال الشرطة باصطحاب (فرايمان) إلى المخفر ثم تقرر أن يعالج عندي في المصحة.. الرجل في حالة سيئة ويعاني فصامًا شديدًا. لكنه قد ذكر اسمك ذات مرة وكتب لنا عنوانك على ورقة. لذا أردت ان أسألك عما إذا كانت لديك أية معلومات عن الموضوع"

طويت الرسالة شاعرا برجفة..

لقد وجده إذن!!!

وكل هذه الأعوام لم تزل رعبه وخوفه منه.. لقد استعاد لحظات المعتقل عندما كان صبيا خائفا بينما الوحش النازي يفتش الصفوف حاملاً عصاه..

أعتقد أن (فرايمان) استعان بأحد صيادي النازيين المتخصصين، وهؤلاء كلاب صيد تتقاضى المال وتبحث عمن تريد..

لكن ما موقفهم في بيت (فرايمان) ببولندا؟.. ما رأيهم في هذا كله؟

أرسلت خطابًا إلى عنوان (فرايمان) الأصلي أسألهم فيه عما فعلوه أو ينوون عمله بصدد البروفسور الذي جن أخيرًا.. بعد أيام جاءتني رسالة تقول:

-"أنا أنهي أعمالي وسوف أسافر إلى الأرجنتين هذا الأسبوع.. أخي بحاجة إلي حتمًا!"

أخي؟... هرعت إلى السنترال وطلبت الاتصال بالرقم الوحيد الذي أملكه للبروفسور في بولندا. أخيرا جاء صوت يتكلم

بالإنجليزية..

-"أنا (سام فريمان).. أنا الشقيق التوأم للبروفسور!"

-"هل تعني أنك لم في (أوشفيتز)؟"

قال ببرود:

-"يصعب أن يحدث هذا ومع ذلك أرد على مكالماتك.."

-"والتجارب؟.. قزحية أخيك التي تحمل عدة ألوان؟"

-"أه.. هذا عيب خلقي نادر يحدث مع تضخم في القولون.. لقد ولد أخي بهذا الداء.. ما هي المشكلة؟"

-"كان يقول إن (يوسف منجيل) فعل به هذا.."

ضحك في الهاتف طويلاً ثم قال:

-"على فكرة.. يوسف منجيل مات هذا العام!.. كان في الأرجنتين باسم مستعار هو (فولفجانج جيرهارد).. مات بجلطة مخية وهو يمارس رياضة السباحة وقد دفن بذات الاسم. صيادو النازيين قد عثروا على قبره.. لاشك في هذا.."

وضعت السماعة ورأسي يدق كبؤرة مجانين..

يوسف منجيل كان اسمه المستعار (فولفجانج جيرهارد) ولم يكن (هنريش مولر).. (فرايمان) حسب أنه وجد (منجيل) الحقيقي وكاد يفقأ عينه بالمحقن.. (منجيل) لم يجر أية تجارب على عين (فرايمان) ولم يحقنه بشيء إنما هذا اللون الغريب جزء من عيب خلقي معروف..

كان (فرايمان) مجنونًا لكني صدقته.. ترى هل ينطبق هذا على باقي قصص المحرقة، التي صنعها خليط من الخبال والكذب الصريح والرغبة في استدرار عطف العالم؟..

لن أعرف أبدًا.. يحتاج الأمر إلى لجنة تدقق وتفحص بعيدًا عن التأثير الصهيوني وسيف معاداة السامية..

كان (منجيل) سفاحًا، لكنه بريء تمامًا من هذه التهمة على الأقل.

الرأس

حالته سيئة فعلاً.. لا أنكر هذا...

الجفنان المقرحان، والكف المبللة بالعرق، والكتفان المنحدران.. مع تلك اللمسة التي لا أعرف كيف أصفها، لكنها

موجودة دائمًا وأشمها على الفور: رائحة من تتسلط عليه فكرة لا يستطيع الخلاص منها.. هذه الرائحة تفوح من المجانين والمنتحرين قبل أن يثبوا من النافذة..

تلك اللفافة اللعينة في يده لا تفارقها. ومن حين لآخر يفتحها ويلقي نظرة على محتوياتها ثم يضحك في إرهاق.. يضحك في حزن.. يضحك في تعاسة..

أنظر له بعناية أكثر.. هذا تكوين نفسي هش لا شك في هذا.. ملامح وسيمة لكنها بلا عمق.. هذا فتى يعنى بسوالفه أكثر مما يعنى بعقله، وهو عاجز تمامًا عن منطقة أي شيء..

عيناه عميقتان لكنهما لا تقولان أي شيء..

يجلس هناك وينظر لي لكنه لا يراني..

يمد يده في جيبه ويخرج علبة تبغ، ثم يتذكر أين هو فيعيدها لجيبه بسرعة..

-"الحقيقة يا دكتور إنني لا أنام.. فعلاً لا أنام.."

-"هذا واضح يا بني.."

-"آسف أن أقول هذا لكني أدخن بشراهة.."

-"هذا واضح كذلك.. فقط أرجو ألا تضيف المخدرات إلى مشاكلك.."

بدا عليه الجزع، وهز رأسه نافيًا.. أنا أب وأعرف متى يكون ابني صادقًا.. هذا الفتى صادق أو هو من عتاة الممثلين.. لو كان كاذبًا فكل فناني (ستوديو الممثل) هواة..

كنا جالسين في مكتبي في الكلية – قسم الأدب الإنجليزي لو كنت نسيت – وكان قد طلب تأجيل الامتحان.. جميل هذا لكنه ليس عملي.. هناك إجراءات يتخذها في الكلية، لكنه كان يريد رأيي كذلك..

اسمه (محمد الصباغ)... من أسرة متوسطة.. مستواه كذلك متوسط، لكنه وسيم بلا شك ويبدو كممثلي السينما، ولعل مشكلته تبدأ من هنا..

قال لي بصراحة لم أعهدها:

-"أنا لست طالبًا مجدًا.."

-"هذا اعتراف شجاع يروق لي"

-"أعمل أكثر مما أدرس في الكلية.. قد يبدو هذا نوعًا من الكفاح الباسل، لكن الحقيقة هي أنني أعمل فقط.. "

ثم أخبرني بمهنته التي تعطله عن الدراسة.. المهنة – بلا فخر – هي (خرتي). يبدو أن هذا الفتى مولع بالخرتية بشدة لدرجة التضحية بمستقبله، بنفس المنطق الذي يضحي به من يهوى التمثيل أو الغناء بمستقبله.. الخرتي باختصار غير مخل هو الشاب الذي يجيد لغة أجنبية أو لغتين، ويقف في الأماكن السياحية يعرض خدماته كمرشد ودليل ومترجم على السياح مقابل مال طبعًا، وغالبًا يلقى الكثير من التأفف ما لم تقبض عليه شرطة السياحة..

طبعًا كانت مهنة سهلة بالنسبة لشاب يجيد الإنجليزية، لكن الفتى كان يقصر نشاطه على السائحات.. السائحات المسنات بالذات..

هنا بدأت أفهم. فقلت له في ضيق:

-"هناك اسم آخر لهذه المهنة.. هل سمعت عن لفظة

(جيجولو)؟.. أي الشاب الذي يبيع شبابه ووسامته للنساء المسنات"

لم يعترض... فقط واصل الكلام مما اكد لي أن استنتاجي صحيح:

-"كان اسمها (ماريان)... فرنسية هي في الخمسين وأرملة، وأعتقد أنها هامت بي حبًا.. أنا أعرف كأي خرتي آخر كيف اكون ظريفًا جذابًا.. لعبت معها دور ابن النيل الظريف الأسمر فلم تعد تقدر على الاستغناء عني.. وعندما أزمعتْ الرحيل عن مصر طلبت مني مرارًا أن ألحق بها. لكني رفضت.. تركت لي هدية وقالت إنها حصلت عليها عندما كانت تقوم بسياحة في أمريكا الجنوبية. قالت لي إنها سوف تجلب لي الحظ السعيد لكن علي أن أحتفظ بها معي دومًا.. وسافرتْ"

-"والهدية هي؟"

أشار للكيس الذي يحمله والذي يفتحه من حين لآخر ويتحسس ما به.. فمددت يدي وفتحته

إن أمزجة الناس تختلف فعلا.

قال وشبح ابتسامة على شفته:

-"لا تنكر يا سيدي أنه غريب وطريف، وقد أثار شغف أصدقائي.. نطلق على هذا لفظ (روشنة) وهذا يجعل من يمتلك شيئًا كهذا قادرًا على لفت الأنظار دعك من صراخ الفتيات.. "

أعرف هذا الذي أخرجه من الكيس.. الشيء الذي يماثل حجم البرتقالة.. أعرفه بحكم قراءاتي في الأنثروبولوجي ولا أتوقع من الفتى ان يعرفه وهذا يدهشني. لو أنك كنت محاربًا من قبائل (خيفارو) في الماضي – في بيرو والأكوادور – لكان عليك كلما قتلت عدوًا أن تقطع رأسه في حذر ودقة، ثم تجري شقًا في مؤخرة العنق ليتم سلخ الجلد بما عليه من شعر، وتترك الجمجمة بما عليها من عضلات هدية لثعبان الأناكوندا.. الآن صار عندك جورب من الجلد يحمل ملامح الوجه وعليه الشعر، وهو قابل للحشو..

بعد هذا تتم خياطة العينين والشفتين. الآن صار اسم الرأس (تسانتسا) ويتم حمله إلى أوعية الطهي حيث يعامل معاملة خاصة. عندما تنتهي العملية يكون الرأس في ثلث حجمه الأصلي ومجوفًا كقفاز خال.. يتم حشوه بالحجارة والرمال وتعليقه فوق النار

لينكمش أكثر. ثم يتم تزيين الرأس.. وعمل أنشوطة تسمح بتعليقه حول العنق.

كان هنود (خيفارو) في أمريكا الجنوبية متخصصين في هذا.. كانوا يعتقدون أن الرأس المصغر يحتوي أرواحًا مهمة لحماية المحارب. منها الواكاني التي لا تتأثر بموتنا لكنها تتحول لبخار، والأروتام التي تحفظنا أحياء، والمويساك التي تنتقم لصاحبها.. يجب تصغير الرأس وتعليقه حول عنقك كي لا تلاحقك المويساك وكي تدافع عنك الأروتام.. دعك من أن تعليق الرأس يضفي عليك جمالاً رجوليًا ويدل على انك مارست الحرب والقتل من قبل..

الآن يقول الفتى إن الفرنسية العجوز العاشقة المخبولة تركت له هذا الرأس هدية.. ما معنى هذا الكلام العجيب؟

-"هل تعرف معنى هذا الشيء؟"

-"تسانتسا.. هي قالت لي كل شيء عنه"

ثم قال وهو يراقب تعبيرات وجهي:

-"في البداية لم تكن هناك مشكلة. ثم بدأت (ماريان) تتحـ

بي من فرنسا.. تقول: عد لي.. عد لي.. تطالبني بأن أترك كل شيء لألحق بها. تقول إنها تعرف كل شيء عني لأن الرأس يخبرها بأسراري.. الرأس يعرف ما إذا كنت أحب امرأة أخرى أم لا.. لو ملت بقلبي هنا أو هنا لانتقم الرأس مني.. "

-"وأنت صدقت هذا طبعا؟"

-"لم أصدقه تمامًا.. لكني تشاءمت وقررت التخلص من هذا الرأس.. ألقيته في القمامة وعدت لداري.. كانت المفاجأة حين أنه ينتظرني على عتبة الباب!... أخذته إلى محرقة قمامة بعيدة وألقيته وسط اللهب، وعندما ارتديت ثياب النوم في داري فوجئت بانتفاخ في الجيب.. لقد كان هو!.. قررت أن أجرب أكثر.. اتجهت إلى مرآب قريب به كلاب شرسة جدًا وألقيته لها لتمزقه.. كدت أصاب بانهيار عصبي عندما دخلت فراشي فوجدت ذات الرأس فوق الوسادة!... إنه ملعون.. إنه قوي جدا!"

-"جميل.. وهل كان يفعل شيئًا غير العودة؟"

حك رأسه الرجفة وقال:

-"أحيانا كنت أسمع صوتا يقول لي بالفرنسية: عد لي.. عد

لي.. هذا الصوت كان يتردد عندما تظلم أنوار البيت.. ربما كنت أهذي.. لست واثقًا.. لكن دعني أؤكد لك إنني لا أطيق هذا الرأس وأتمنى الخلاص منه.. في الوقت ذاته انتهى مستقبلي تمامًا.. أنا غير قادر على الاستمرار في الكلية.. غير قادر على دخول الامتحان.. أعتقد أن ما سأفعله هو سرقة مبلغ يسمح لي بالسفر إلى فرنسا حيث أتزوج تلك الشمطاء وأعيش معها للأبد.. لم لا؟.. على الأقل سوف يخرس الرأس"

رحت أتأمل الرأس في حيرة.. يمكن أن تصدق أي شيء يتعلق برأس مقطوع، لكن قصة هذا الفتى تبدو عسيرة التصديق.. ثم خطرت لي فكرة مجنونة.. ماذا يحويه هذا الشيء الكريه؟

مددت يدي إلى الرأس في اشمئزاز، وتناولت ورقة وضعتها تحته، ثم أمسكت بسكين فتح الأوراق.. صاح الفتى في رعب:

-"هل تنوي أن؟.. أنا لا أضمن النتائج!"

لكني كنت قد قطعت الخيط الذي يربط الشفتين، وقلبت الرأس فتناثر المسحوق الأصفر على الورقة.. كان الرأس محشوا به.. غمست إصبعي في المسحوق وتأملته..

قلت له:

-"سوف أجد أحد الباحثين ليعرف لي كنه هذا المسحوق"

ثم نظرت له بمعنى أن اللقاء انتهى، وطلبت منه أن يمر علي في نهاية الأسبوع.. على كل حال لو كان الرأس مسحورًا فلسوف يفر مني ليلاحق الفتى...

في الموعد جلست في مكتبي، ورفعت رأسي لأجد الفتى أمامي.. كما توقعت كان أفضل حالاً وقد عاد الدم يجري في سحنته، شفتاه لم تعودا زرقاوين..

ابتسمت وطلبت منه أن يجلس فسألني الفتى المذعور:

-"ماذا هنالك؟"

قلت في هدوء:

-"لقد قاموا بتحليل المسحوق في كلية الصيدلة.. لم يكن ما يطاردك رأسًا مسحورًا.. بل كانت الهلاوس هي سبب هذا كله. ساحرتك الفرنسية الشمطاء ملأت الرأس بخليط من الداتورا – وهي المادة الخام التي يصنع منها الأتروبين وتسبب هلاوس سمعية

وبصرية مع اتساع في حدقة العينين وجفاف الريق – مع بعض الكوكايين طبعًا.."

قال في غباء:

-"لا أفهم"

-"كلما أمسكت بهذا الرأس كنت تعرق، وكانت المادة تتسرب إلى مسام جسمك بكميات ضئيلة مع العرق.. لا أعتقد أن الرأس عاد إليك.. أنت أنقذته في كل مرة لأنك صرت مدمنًا يا صديقي.. عقلك الباطن فهم هذا وقرر ألا يتخلى عن الرأس أبدًا حتى لو رغبت أنت.. ودعني أؤكد لك أنني عشت لحظات قاسية مع الكوابيس في الليلة التي أخذت فيها هذا الرأس.. ربما بسبب الرهبة وربما بسبب التسمم.. لا أدري"

ثم نظرت له وابتسمت وأردفت:

-"عد لي.. هكذا قالت لك مرارًا.. الحقيقة أنها أحبتك فعلاً.. ولما كانت تعرف أنها لن تستردك عن طريق الحب.. فلتستردك عن طريق الخوف.. عن طريق الإدمان.. هذا الرأس سوف يعيدك ليها.. كما ترى القضية كلها مؤامرة خبيثة من عجوز.

فيما مضى كانت الداتورا بما تحويه من مادة (البلادونا) مفضلة لدى الساحرات وكن يدهنن بها أجسادهن.. يبدو أن عجوزك الفرنسية هذه تحمل بعض طباع الساحرات"

نظر لي في حيرة وضرب جبهته بكفه وقال:

-"يا للعينة!.. للمرة الأولى يخدع السائح الخرتي.. المعتاد أن يحدث العكس.. "

ناولته الكيس وقلت:

-"أنصحك ألا تلمس هذا الرأس ثانية.. أنصحك كذلك ان تنسى الروشنة وتدفنه في التراب.. هل تريد نصيحة ثالثة؟.. "

-"أعرفها.. اعرفها.. العودة للدراسة ودخول الامتحان.. "

ثم أعاد لي الكيس وقال:

-"أكون شاكرًا لو سمحت لي بألا آخذه معي"

-"لن تكون نتيجة الامتحان جيدة على الإطلاق، فلا أتوقع ان تحقق أية نتيجة بعد كل ما ضاع.. لكن لابد من بداية ما.. "

هز رأسه شاكرًا وغادر المكان.. أما انا فرحت أرمق الكيس

في شغف.. ربما ليس الاحتفاظ برأس تساتسا سيئًا لهذا الحد. إنه شيء مثير وطريف، ولسوف ينبهر به الأصدقاء.. دعك من أنه رأس التساتسا الوحيد في مصر.. بل في العالم العربي كله!

المهم ألا تكون له خواص سحرية أو شيطانية ما، وتكون الأخت (ماريان) ساحرة حقًا. والا فأنا أكبر أحمق عرفته في حياتي.. نظرت للرأس وقلت:

سوف نعرف الحقيقة أيها المحارب الشجاع.. سوف نعرف!

قوليها يا (عبير)!

العمات اللاتي يتحولن إلى (جانجريل).. هذه هي مشكلة (عبير) التي طلبت لقائي من أجلها، وكان هذا هو اليوم الأخير في

العام الدراسي، فلعلها انتهزت آخر فرصة للقاء..

(عبير) طالبة في كلية الآداب، وأعتقد أنها ذكية.. كالعادة أنت تريد أن تعرف هل هي جميلة أم لا.. لن أريحك ولن أذكر أي شيء عن خواصها المورفولوجية. لكنك ستعرف الكثير عن طريقة تفكيرها من قصتها التي أنقلها لك بأمانة.

في الآونة الأخيرة بدأت (عبير) تقلق بالفعل، فالأمر لم يعد يحتمل المزيد من الصمت، خصوصاً بعد الاختبار الذي أجرته والذي لم تتوقع نتيجته قط.

بطبيعتها لم تكن تشعر بميل للعمات. تبدو لها كلمة (خالة) أرق وأقرب للحنان، وبرغم أنها تعرف أنها لن تكون سوى عمة لأن لها أخوين ذكرين ولا أخوات، فإنها كانت مصممة على أن ترغم أطفال أخويها على مناداتها بـ (خالتو) لفظة (عمتي) قاسية وفيها حرف (عين) مزعج. توحي بالقسوة والصرامة واللامبالاة..

كان زوج عمتها قد توفي منذ فترة، والعمة لم تنجب.. كانت العلاقات سيئة منذ البداية بين الأسرتين، ويبدو أن هناك خلافاً

على إرث ما أو شيئاً من هذا القبيل. لكن وقد توفي زوج العمة الذي كان يعمل في الخارج أكثر الوقت، فإن أبا (عبير) قال لها:

ـ "عمتك الآن وحيدة.. أرملة وحيدة مسنة وتحتاج إلى الرعاية. عليك وأخويك أن تزوروها من حين لآخر"

إن أباها شبه مقعد بسبب الشيخوخة والدمار الذي أحدثه الروماتزم في مفاصله، وكذلك أمها..

بالطبع لم يهتم أخواها بالأمر كثيراً. فلهما عملهما واهتماماتهما الخاصة كما أنهما لم يحملا غراماً مفقوداً للعمة. إن تراث المقت الذي تربيا عليه نحو عشرين عاماً يصعب أن ينتهي فجأة..

لكن (عبير) كانت أكثر ميلاً إلى طاعة أبيها، وقد زارت عمتها في بيتها بحي المنيل. شقة صغيرة أنيقة لكن لم يجر فيها أي تجديد منذ عشرين عاماً على الأقل. فهي عروس عجوز مثل الآنسة (هافيشام) في قصة ديكنز الشهيرة (آمال كبار). لم تكن (عبير) مستعدة لتقع في حب عمتها، والعمة لم تكن مستعدة لترتمي باكية

في حضن (عبير). كان على العلاقات أن تتوطد وتنتظم بضعة أيام حتى يولد نوع من الألفة بينهما..

(عبير) كانت تمقت اللحظات التي تبدأ فيها العمة في لعب دور الشهيدة وتحكي عن أبي (عبير) العاق الوغد الذي لا يزور أخته، والذي خسرها بسبب عقار قديم في شبرا..

لم تكن (عبير) مستعدة لسماع من يشتم أباها ويلصق به كل النقائص، لكنها كذلك لم تكن مستعدة لأن تشتم عمتها وتجري غضبى من البيت.. لهذا كانت تسمع في صبر مرددة من حين لآخر:

-"ربنا يهدي الجميع"

حتى تنتهي نوبة السباب عند عمتها. وقد خطر لـ (عبير) أن أباها طيب القلب فعلاً لأنه لا يطيق ترك أخته، حتى وهو بالتأكيد يعرف رأيها هذا فيه.

كانت كذلك تبتاع لعمتها بعض الأشياء التي تريدها من السوق، وهو جهد شاق خاصة إذا عرفنا أن العمة تقيم في الطابق السادس وليس هناك مصعد في البناية. برغم هذا لم تكن عمتها

تتصل بابنة أخيها على الإطلاق كما كانت لا ترد على الهاتف أبدًا.

نعم.. عبير تمقت أن تكون عمة.. يجب أن تكون خالة وخالة فقط..

إلى هنا تظل المشكلة مشكلة علاقات أسرية متوترة وما أكثرها في عالم اليوم، لكن ما بدأت (عبير) تلاحظه جعلها أقرب إلى الذعر. والأسوأ أنها كانت تعرف أن أحدًا لن يصدقها، فإن صدقوها فلن يساعدوها..

• • •

قالت لي (عبير) بصوت مبحوح:

-"هنا بدأت المشكلة.."

-"تعنين أن ما سبق لم يكن مشكلة؟"

بدأت تحكي لي. في البدء كان صوتها خفيضًا محشورًا ثم بدأ يرتفع وأداؤها يعلو:

-"في البداية لم يكن هناك شيء غريب، فيما عدا أن عمتي لها شكل غير مريح.. شكل غير مريح وطبع غير مريح كذلك.. لقد

قبلت هذا.. لكن هناك أسئلة أخرى.. مثلاً لماذا لا تخرج للنور أبدًا؟.. إنها نحيلة جدًا لها حواجب كثة.. وأشعر كأن لها نابين طويلين.. (ذات الرداء الأحمر) والجدة التي كانت ذئبًا.. هذه هي الصورة التي تلح على ذهني طيلة الوقت.. "

-"لو أردت رأيي، فالشكل المرعب ليس جريمة"

-"نعم.. نعم.. لكن ماذا عن كميات اللحم المرعبة التي تطلبها مني؟.. نحن في بيتنا لا نلتهم أكثر من خمسة كيلوجرامات في الشهر لكنها تلتهم خمسة كيلوجرامات كل ثلاثة أيام تقريبًا.. أبتاع لها هذه الكميات وهي ترحب بها بشدة، حتى إنها لتوشك على طردي كي تبدأ الأكل.. "

-"لو أردت رأيي فالشراهة صفة ذميمة لكنها ليست جريمة.. لو كنا سنعدم كل إنسان قبيح شره، فسوف تخلو الشوارع من المارة.. ربما ما كنت واجدة من تعرضين عليه مشكلتك هذه لأنني أنا نفسي قبيح شره"

لم تبتسم.. اتسعت عيناها وقالت وهي ترتجف:

-"متى تطهوها وكيف؟.. ليست لديها طاهية، وأنا متأكدة

من أنها لا تستعمل أوعية الطهي.. كلها نظيفة في المطبخ وبعضها عليه خيط عنكبوت رقيق"

ثم ابتلعت ريقها ونظرت للباب وقالت:

-"هناك شعر كثيف أسفل عنقها وعلى معصميها.. لا أعني شعرًا.. أعني شيئًا كثيفًا يشبه الفراء.. أنا متأكدة من هذا.. لهذا تلبس ياقات عالية لكنها ترفع رأسها من حين لآخر وعندها أرى بوضوح.. "

-"لو أردت رأيي فاضطراب الهرمونات يعطي نتائج غريبة لكنه ليس جريمة.. عمتك امرأة قبيحة شرهة ذات هرمونات مختلة، وهي تهم لا تدينها في أية محكمة"

ثم أضفت:

-"كم من سيدة محترمة كلمتني فأقسمت لنفسي أن شاربها أطول من شاربي.. لاحظي أن هرمونات الأنوثة تصير حلمًا غابرًا مع عجائز النساء"

قالت (عبير) في تصميم:

-"بدأت أقلق.. كل شيء كان يؤكد لي أنها غول.. عمتي غول

يلتهم اللحم نيئًا ويعيش في الظلال. هكذا قررت أن أعقد لها اختبارًا صغيرًا.. اختبارًا يثير الاشمئزاز لكنه فعال. ابتعت نصف كيلوجرام من الكبد وقمت بخفقه في الخلاط وأضفت له بعض السكر. ثم وضعته في زجاجة وقمت بتبريدها.. عندما زرتها قلت لها إنني قلقة على صحتها لذا أعددت لها بعض عصير الفراولة (الشليك). وهرعت إلى المطبخ وصببت لها كوبًا مليئًا بالسائل الكريه. وعدت به لها.. هل تعرف ما حدث؟"

-"يمكنني أن أخمن"

-"شربته!.. شربته ولم تلحظ أي شيء!.. ثم أعلنت أنه شهي المذاق وأنني بارعة جدًا. هكذا صار الشك يقينًا في نفسي.. ما نوعية المرأة التي تشرب دمًا خالصًا ولا تلاحظ؟"

ثم أردفت:

-"الجديد أنها مصرة على أن أبيت معها ليلة.. تصر بشدة!.. أنا لن أفعل ذلك أبدًا. لو حكيت لأبي فلن يصدقني.. لا يوجد من يصغي لي سواك وأرجو أن تصدق.. معي الدليل"

ثم مدت يدها في حقيبتها ووضعت الدليل أمامي..

-"كما ترى.. هذه بضع شعيرات وجدتها في الحمام.. إنها تزيل شعر جسدها قدر الإمكان كما هو واضح. لهذا وجدت هذه الكتلة من الشعر. هل يبدو لك هذا شعر جسد زائدًا نتيجة خلل هرمونات؟!. يبدو لي كفراء حيوان!"

تأملت الخصلة ثم قلت وأنا ألفها في منديل ورقي:

-"أنت فتاة طيبة رقيقة، لكنك ساذجة إلى حد لا يصدق.. عمتك ليست غولاً بل هي مريضة جدًا.. ثمة مرض يعرفه الأطباء يدعى (البورفيريا)، وقد حدثني عنه طبيب صديق مولع بالطب والأدب معًا.. هذا المرض أطلقوا عليه قديمًا اسم (مرض الرجل الذئب). هنا يشحب وجه المريض ويتجنب ضوء الشمس لأنه يحرقه حرقًا.. ينمو شعر الوجه والجسد أكثر من اللازم وتستطيل الأنياب والأظفار. باختصار يشبه الذئب جدًا في حالات المرض الشديدة. هناك نوبات من المغص والتشنج وربما علامات عصبية محيرة. السبب خلل في تمثيل الحديد وهو مرض كيميائي شديد التعقيد. لذا في حالات متطرفة من المرض قد يجد المريض في نفسه شهوة لتذوق الدم أو أكل اللحم النيئ.. هذا ليس غريبًا لو تذكرت أعراض الاشتهاء الغريبة التي تمر بها الحوامل مثل الحاجة لأكل

الثلج أو أكل قطع من جير الحائط، مما يطلقون عليه اسم (المقعقة Pica).. من هنا نفهم كيف شربت ذلك العصير الكريه وراق لها -

ثم نظرت في عينيها الصافيتين وقلت:

-"عمتك ليست غولاً.. فقط هي مصابة بمرض لا علاج له.."

بدت في عينيها شفقة واضحة.. ومن جديد بدا تساؤل:

-"هل ترى أن أبيت معها إذن؟"

-"لا أرى ما يمنع سوى أن عليك أن تتحملي غرابة أطوارها.. قلت لك إنهم يتصرفون بطريقة غريبة"

-"سوف أتحمل هذا ما دام من أجل شخص مريض.. شكرًا لك.."

وغادرت المكان شاكرة..

لماذا لم أحتفظ برقم هاتفك يا (عبير)؟.. لماذا لم أعطك رقم هاتفي؟..

بهذا انقطع حبل الاتصال بيننا تمامًا، والآن أجد أنني كنت أحمق.. ربما كنت أحمق..

عندما حكيت القصة لدكتور مصطفى المولع بالأساطير، تأمل

قطعة الفراء الرهيبة، وقال:

-"جانجريل!.. موجودون في الثقافة الغربية، لكن لا أرى ما يمنع أن يوجدوا هنا!"

-"هلا أوضحت أكثر؟"

قال في اسباع:

-" الجانجريل نوع خاص من مصاصي الدماء له قدرة على التحول إلى حيوان، وتكون هناك رقعة من الفراء الحيواني في موضع ما من جسده.. لدينا الآن دليل قوي على وجود جانجريل لأول مرة في مصر... أعتقد أن زوج هذه العجوز هو من جلب معه العدوى من الخارج وأصابها بها.. ربما لو فحصت المرأة جيدًا لوجدت لها أذني وطواط!!"

-"والفتاة؟"

-"هذه تجربة مثيرة.. تصور فتاة رقيقة كهذه تبيت ليلة وحدها مع جانجريل!.. هذا جدير بالدراسة!.."

نظرت له في رعب.. فلما رأى نظرتي قال ضاحكًا:

-"وربما لا يكون الأمر كذلك.. إن البورفيريا تفسير لا بأس

به."

ثم هز رأسه وشرب باقي زجاجة الكولا وانصرف...

الآن يا (عبير) لا داعي للمزاح من فضلك.. لا داعي للاختفاء..

لو قرأت هذه الكلمات فإنني أتوسل إليك أن تتصلي بي وتخبريني أن كل شيء على ما يرام، وأن مصطفى قد قرأ أساطير أكثر مما ينبغي... لا يوجد جانجريل في مصر.. أليس كذلك؟..

هيا.. قوليها!

المقبض

في الفترة التي اهتم فيها السوفييت بعلم الباراسايكولوجي، وبحثوا كثيرًا عن المحركين عن بعد وعن القادرين على التجسس بقراءة الأفكار، كانوا يعلّمون جواسيسهم مفهوم الدهاليز الموجودة

في العقل الباطن.. هناك ممرات طويلة وغرف خفية هنا وهناك.. عندما تدخل عقل ضحيتك وتبحث فيه سوف تجد بابًا موصدًا بقوة، وعليك أن تحاول اقتحامه بأية طريقة لأن الحقيقة كلها هناك.. الأكثر إثارة ورعبًا انك لو عبثت أكثر من اللازم في تلك الغرفة لجن الشخص...

مع الوقت ماتت هذه الأبحاث ونسيت، أو لعلها ما زالت تمارس في مختبر خفي قرب موسكو. لكنني تذكرت هذا الجو بشدة عندما حكت لي (مروة فهيم) قصتها..

عرفت (مروة) عندما كنت أزور د. (مصطفى) الطبيب النفسي وصديقي الحميم. كنت في عيادته أنتظر بالخارج وأتأمل اللوحات المعلقة التي تظهر فرويد وأدلر ويونج ومجموعة من السادة الذين لا أعرف من هم، لكنهم جميعًا بثياب بداية القرن العشرين..

هنا انفتح الباب وظهر د. مصطفى وطلب مني أن ألحق به بالداخل..

كانت هناك امرأة في الأربعين من عمرها تجلس أمام

المكتب، وفي وجهها جمال خافت ووقور من الطراز الذي تحب أن تستزيد منه. شعرت بحرج بالغ لأنها مريضة بالتأكيد فلا يحق لي أن أكون هنا. التواجد مع مريض في عيادة الطبيب النفسي أكثر إحراجًا وتجاوزًا من تواجدك مع مريض نزع ملابسه في عيادة الطبيب الباطني. لدى الطبيب الباطني ينزع المريض ثيابه، أما هنا فهو ينزع كل أقنعته الاجتماعية. يتحمل أي إنسان أن يرى نفسه عاريًا أمام المرآة وقد يحب ذلك، لكنه لا يطيق أبدًا أن يرى نفسه على حقيقتها..

لكن د. مصطفى قال لي:

ـ"المهندسة (مروة).. طلبت منها أن تستأنس برأيك وخبراتك الواسعة فلم ترفض.."

جلست في كثير من الحرج وبدأت أسمع القصة..

(مروة) مهندسة في الأربعين من العمر، وغير متزوجة، وهي حاليًا راضية بذلك سعيدة خالية البال.. هي تؤمن أن الزواج يضع قيودًا لا حصر لها على المتزوجين. لا يتعلق الأمر باللهو والتحرر، لكن يتعلق ببعض الحريات الصغيرة مثل الخروج

والعودة متى أرادت، والاستيقاظ من النوم متى شاءت.. يمكنها أن تأكل ما تشاء وقتما تشاء أو لا تأكل أصلاً، ولا يطاردها زوج ضخم البطن يطالبها بأن تطهو له البامية أو تغسل جواربه. الحقيقة أنها بعد الرابعة والثلاثين بدأت تشعر بقلق شديد وتساءلت عن السبب الذي يجعل العرسان لا يرون بابها، ثم عرفت كيف تتأقلم على هذا وأقنعت نفسها أنها سعيدة..

اصطدمت كذلك بأن المجتمع لا يسمح بالحرية للمرأة غير المتزوجة، ويعاملها بقسوة أكثر من المتزوجة. ثم بدأ الشيب يغزو شعرها وملامح وجهها تتجعد.. تحولت إلى (طانط) وأحيانًا إلى (حاجّة).. هكذا بدأت تكتسب الحرية!.. لم يعد أحد يضايقها ولم يعد أحد يشك في أمرها.. لقد عبرت!!

هكذا هي في الأربعين متأقلمة جدًا وراضية جدًا.. فقط تدعو الله أن يطيل عمر أمها العجوز لأن معنى رحيلها هو الوحدة القاسية للأبد.. سوف تتحول لعجوز شبه مجنونة تربي عشر قطط..

تحكي مروة باقي القصة فتقول:

ـ"كنت نائمة في سلام في تلك الليلة، ثم شعرت بظمأ شديد.. ليس في البيت سواي وأمي، وهي تنام في غرفة مجاورة.. نهضت من الفراش، هنا خيل لي كأنني أرى معالم باب ترتسم على الجدار.. بالفعل هناك نور غامض يتسرب كأنه إطار باب مرسوم على جدار غرفتي.. باب لم يكن هناك قط. تحسست الإطار بأظفاري وأنا أعرف أنني أحلم غالبًا، لكن الباب انزاح.. بدأ ينفتح.. وسرعان ما وجدت أنني أقف أمام فتحة في جدار غرفتي تقود لقاعة مضاءة بلون أزرق رهيب.."

ثم صاحت في عصبية:

ـ"أنا لست مريضة نفسيًا ولا أتعاطى أية عقاقير!"

كانت عبارة غريبة، خاصة وهي تقولها في عيادة طبيب نفسي، لكنني فهمت ما تريد قوله: هي لم تعبر قط الحد الفاصل بين العصاب والذهان.. أي أنها ما زالت تعرف الأوهام عندما تقابلها.. لذا سألتها في كياسة:

ـ"وهل هناك من زعم العكس؟"

ـ"أعرف أنك تقول إنني مجنونة.. لا أصدق أن هذا حدث،

لكنه تكرر أكثر من مرة.. لقد خطوت لتلك القاعة الرهيبة.. هنا انغلق الباب خلفي.. شعرت ببرد وسلام نفسي غريب، وكنت أمشي فوق أرض مبهمة كأنها القطن.. من الغريب أنني رأيت في الخارج غرفتي كأنها من وراء زجاج شفاف.. كنت نائمة في فراشي!.. كنت أرى أمي نائمة في غرفتها.. كنت أرى كل شيء في الشقة، ثم ظهر ذلك الكائن الذي لا أعرف كيف أصفه.. كان يتحرك نحوي.. لم يكن مخيفًا بشكل خاص لكنني لم أستطع أن أنتظر لأواجهه. هكذا فررت خارجة من الباب ذاته فوجدت نفسي في غرفة نومي من جديد"

-"فهمت أن الباب انغلق خلفك فهل فتحته بأظفارك كما دخلت؟"

-"لا.. استعملت مقبضًا مثبتًا من الداخل لأفتحه....."

-"ولم تكن هذه آخر مرة؟"

-"تكررت مرارًا.. لكن أخشى أنه لم تكن هناك قواعد.. كنت أرى هذا الباب مرة أو مرتين في الشهر.. أحيانًا لا أراه أبدًا.. وكنت أدخل أحيانًا فأدرك أني لست وحدي.. هكذا أفضل الفرار

قبل أن أقابل هذا الشيء المريع.. طبعًا كنت أعتقد أنني مسوقة للخبال، لهذا صممت في آخر مرة على أن احتفظ بذلك المقبض كدليل على أنني كنت هناك.. "

ومن حقيبتها أخرجت ذلك الشيء..

بالفعل كان مقبضًا كرويًا غريب الشكل كأنه يضيء من الداخل بلون أزرق فوسفوري غريب.. لا أعرف حجرًا كريمًا أزرق، لكن هذا أدق وصف له.. كنت أكتم أنفاسي بصعوبة..

لكن – لو أردت رأيي – ليس دليلاً كافيًا.. لو كان هناك باب يفصل بين عالمين، لكان مقبضه غريب الشكل لا يشبه أي شيء رأيته من قبل.

قلت في انبهار:

-"جميل فعلاً.. "

-"إذن أنت تصدقني؟"

-"أصدقك لكن لا أصدق هذا الكلام عن العالم الموازي العجيب"

قال د. مصطفى وهو يشعل الغليون لأن هذا يجعله شبيهًا بفرويد:

-"رأيي الخاص هو أن لديك قدرًا من الكبت.. "

قالت في غضب:

-"قلت لك إنني لا أبالي بالرجال ولا أريدهم في حياتي.. "

ابتلع ريقه وقال وهو ينفث الدخان بكثافة:

-"ليكن. لكنك بهذا تخالفين الطبيعة التي اختارها لك الله، وهذا أدى إلى أن خلقت لنفسك عالمًا موازيًا تدخلينه متى أردت.. "

-"كلام فارغ"

هنا تدخلت أنا وقد تذكرت ما عرفته في بريطانيا:

-" لو سمحت لي.. هناك ما يسمى بتجربة الخروج من الجسد.. وهناك ما يدعى (الإسقاط النجمي).. قد يبدو هذا غريبًا لكن هناك أشخاصًا يمكنهم أن يغادروا أجسادهم ليحلقوا في الغرفة، وعندها يرون أجسادهم من الخارج وهم نيام.. يرون الآخرين من فوق.. البعض يربط بينها وتجارب خروج الروح.. لكن هذا غير صحيح.. كثيرون مروا بهذه الخبرة دون تعرض للوفاة..

هي مجرد موهبة."

قالت في حيرة:

-"إذن.. هذه الغرفة؟"

-"لا وجود لها.. ما يحدث أنك تنامين وتبدئين التحليق في الغرفة بوعيك لا جسدك.. تتخيلين أنك في عالم آخر ناء وأنك ترين كيانًا يلاحقك.. كل هذا غير صحيح.. "

-"وهذا القبض العجيب؟"

-"أعتقد أنك اشتريته من مكان ما ونسيت الأمر.. "

ثم أضفت:

-"ألعاب العقل الباطن لا تنتهي.. لاحظي أن تجربة الخروج من الجسد هي نوع خاص من المشي أثناء النوم.. الماشي أثناء النوم قد يحصل على أشياء لا يعرف مصدرها.. وهكذا تجدين أن قصتك مثيرة لكن لا أساس لها من الصحة.. يمكنك ترك هذا القبض لنا كي يساعدك على النسيان"

تنهدت للحظات ثم مدت يدها وأسقطت المقبض في كفي.

فعلا له ملمس غريب وخفيف أكثر من اللازم، لكن كيف انتزعته؟.. هل يدخل المرء عالم الحلم وهو يحمل معه مفكا؟

أغلقت حقيبتها ونهضت. وسألتني من جديد:

-"د. محفوظ.. إذن أنت ترى أن ما حدث لي إسقاط نـ... نـ..."

-"إسقاط نجمي... Astral projection.."

هزت رأسها في عدم اقتناع وانصرفت..

لما صرنا وحدنا قال د. (مصطفى):

-"الغريزة الجنسية قوية جدا، وتجاهلها أو كبتها يسبب شتى أنواع الهلاوس والاضطرابات.. لهذا تسمع حشدا من قصص الفتاة التي تزوجت ملك الجان والتي ينشق جدار غرفتها فجرا كل يوم.. الله زرع فينا الغريزة الجنسية كي نتزوج وننجب، وعندما نتجاهل هذه الغريزة فإن علينا أن ندفع الثمن من العصاب والهلاوس.."

قلت له:

-"تنسى حقيقة أنها لم تسع لهذا الوضع.. أحيانا يصاب

الرجال بالعمى.."

ـ"لا أعتقد أن فتاة مليحة كهذه لم تصادف عرسانا مناسبين.. فقط هي ظلت في دائرة: من أريده لا يريدني ومن يريدني لا أريده.. حتى فات القطار"

ونسينا الأمر ورحنا نتكلم في أمور أخرى..

بعد أسبوع قمت بجولة على بعض محلات لوازم الديكور، وعرضت المقبض على أكثر من بائع. منهم من هز رأسه في حيرة، ومنهم من قال إنه مستورد من اليابان ولا يوجد له شبيه، ومنهم من طلب مني المزيد منه لأنه رائع الجمال..

الخلاصة: لا يوجد مقبض كهذا في مصر كلها..

زرت د. مصطفى في عيادته لأخبره بالتطورات الأخيرة، فوجدته يجلس ساهما..

قبل أن أسأله ناولني صفحة الحوادث من جريدة، فنظرت لها لأقرأ الخبر التالي:

-"البحث يستمر عن المهندسة المختفية. المهندسة التي

اختفت من غرفة نومها ليلاً لم تفتح أية أبواب، لأن الشقة والشرفات كانت مغلقة من الداخل. الأم تؤكد أن ابنتها لم تكن لها عداوات ولكنها كانت في حالة نفسية سيئة في الفترة الأخيرة."

وكانت الصورة واضحة.. لا توجد مهندستان لهما الملامح ذاتها.

رفع مصطفى عينيه نحوي وتساءل:

-"ثم؟"

جلست على المقعد ومددت يدي في جيبي وأخرجت المقبض.

لو تركنا للخيال العنان، فقد ارتكبت حماقة غير عابئة عندما اجتازت الباب آخر مرة، ودخلت ذلك العالم من باب الفضول، بينما المقبض ليس معها.. لقد كان معي!. لو تركنا للخيال العنان لقلنا إنها حبست للأبد في ذلك العالم الغامض.. ترى الناس وتسمعهم لكنها لا تستطيع الخروج لهم..

لو تركنا للخيال العنان لقلنا إنها أليس التي عبرت عالم المرآة لكنها لم تستطع العودة.

لو قلنا إنها خلقت هذا العالم لتفر فيه، فهي أول إنسان

يضيع في خياله. فيلم الرسوم المتحركة القديم الذي يظهر رساما يرسم حفرة ثم يثب فيها ليغيب للأبد..

قلت لمصطفى وأنا أتنهد:

-"اسمع.. لابد أن نذهب هناك الآن.. يجب أن نجد ذلك الباب في الجدار.. يجب أن نفتحه."

-"الباب لا وجود له إلا في عقلها الباطن"

-"من يدري؟.. لربما وجدنا بابًا مماثلاً في عقلينا.. ولربما وجدنا بابًا حقيقيًا سريًا في غرفتها فرت منه.. لا أعرف ما أقول لكني على يقين من شيء واحد: أنا وأنت كنا مخطئين.. كنا مخطئين على طول الخط!!"

النافذة الخلفية

في العام 1954 قدم ألفريد هتشكوك فيلم (النافذة الخلفية)

ذا الحبكة التي يعرفها الجميع: جيمس ستيوارت المصور الصحفي

كسر ساقه وأرغم على قضاء وقته يتلصص على الجيران عبر النافذة

الخلفية. هنا يكتشف ما يبدو له كجريمة قتل ويحاول فك طلاسمها. التلصص الذي مارسه ومارستاه على الجيران في أول الفيلم سوف ندفع ثمنه غاليًا من الرعب والتوتر.

تذكرت هذا الموقف جيدًا عندما قررت زوجتي أن تبيض شقتنا، وفي هذه الأمور لا كلمة للرجل من أي نوع. سرعان ما تظهر دلاء الطلاء وعليه والسلم الخشبي إياه، والنقاش ومعاونه خبيث النظرات.. وتفوح رائحة المذيبات العضوية ورابع كلوريد الكربون. وسرعان ما تتكوم حياتك في ركن أضيق فأضيق.

قلت لزوجتي إن وجودها مع الأولاد غير مناسب.. يمكنها أن تذهب لتقيم عند أمها طيلة فترة العمل.. طبعًا أنا لن أفعل ذلك لأنه لابد من البقاء مع هؤلاء الأخوة..

هكذا صارت حياتي عسيرة جدًا.. كومت كل لوازمي في غرفة الأولاد، وصرت أمارس ذات الحياة التي كنت سأمارسها في المعتقل لو كنت شيوعيًا. عند الظهيرة يصل ابني حاملاً بعض علب الطعام فأنتظر حتى يرحل العمال ثم آكل.. أنام وأقرأ وآكل وأدرس في مكان واحد.. ومن الطريف أن هؤلاء القوم لا يتصرفون كأي عمال

في أي مكان بالعالم: يبدءون العمل فلا يتركونه حتى ينهوه، إنما هم يبدءون خمسة أعمال في أماكن عدة، وهكذا قد يمر أسبوع كامل دون أن يظهروا، والمهمة التي كان من الممكن أن تنتهي خلال أسبوع تتمدد لتأخذ أشهرًا عدة.

كانت التسلية الوحيدة المتاحة لي هي أن أنظر عبر النافذة في غرفة الأولاد، وهي تطل على مشهد لم أعتده وربما لم أره في حياتي.

الشارع عريض متسع وهناك بناية شامخة مواجهة لي تتناثر خارجها أجهزة التكييف. هناك شرفات بعضها مزود بستائر وبعضها فيه نباتات متسلقة جميلة. كان مجال الرؤية بعيدًا فعلاً لهذا كان من الصعب أن ترى المكان بوضوح، وقد أراحني هذا.. على الأقل لا يرى أبنائي ما يحدث لدى الجيران.. إن ابنة الجيران التي تقف في النافذة على بعد متر من نافذتك صارت تاريخًا يمت لأفلام شادية..

صرت أجذب كرسيًا وأجلس جوار النافذة أراقب الشارع، ومع الوقت صرت تقريبًا أحفظ كل ما يحدث.. متى يمر هذا الرجل

ذو العكاز، ومتى يمر الرجل الذي توحي مشيته بخلل نصفي قديم، ومتى تتأود تلك الفاتنة، ومتى تمر بائعة الصحف، ومتى يمر بائع الخس بعربته.. أعرف متى يفتح المطعم المواجه لنا أبوابه وتقريبًا أعرف زبائنه بالترتيب..

صورة جيمس ستيوارت لم تفارق ذهني، وحمدت الله على أن بوسعي أن أخرج وأتنقل لأن ساقي سليمة.. لا شك أنه كان في عذاب حقيقي..

في المساء أجلس أحيانًا أمام تلك النافذة وأراقب الشارع.. عندما يسود الظلام تكبر النوافذ المحيطة بي وتصير أوسع. قاعدة يعرفها مخرجو مسارح العرائس جيدًا..

كنت ألتهم بعض الشطائر عندما رأيت تلك النافذة في البناية المواجهة.. البناية البعيدة إلى حد ما والتي تقع على نفس الارتفاع.. هذا يجعل الرؤية محدودة كما تفهم.. لو كانت تحت مستوى بصري لكان المشهد أفضل. هناك جهاز تكييف صغير - من نوع النافذة - جوار الإطار، وهناك ما يبدو كأنه غرفة لكنني لا أتبين محتوياتها ما عدا تلك الثريا البرونزية القبيحة.. لم يعد

أحد يقتني ثريات كهذه منذ كنا نبتاع الثريات من (درب البرابرة)...

فجأة دخل مجال الرؤية رجلان يبدو أنهما من الحرفيين أو العمال، وكانا يحملان شيئًا ثقيلاً.. بصعوبة وضعاه هناك. ثم وقفا يتكلمان..

فعلاً الرؤية أوضح بشكل لا يصدق في الليل. من المستحيل تقريبًا أن نميز شيئًا من هذا في ضوء النهار، لكن الأمر بدا لي كأنها خشبة مسرح.

هذا الذي كانا يحملانه هو مقعد على الأرجح.. مقعد عملاق قبيح فعلاً، له مسند رأس عال غريب الشكل كأنه من فيلم خيال علمي.. ومن الواضح أنهما وضعاه بحيث يستند ظهره إلى جدار النافذة. لابد أن هناك مكتبًا تحت النافذة بحيث يعطي الجالس ظهره لها.

هناك من يجلس وبالطبع يختفي بالكامل خلف المسند.. يدير المقعد ليختبره سعيدًا بنفسه. مبروك يا سيدي.. أحب هؤلاء الذين يفرحون بمقعد مكتب..

هل هي شركة؟.. ربما.. وربما هي شقة من الطراز الذي يصر رب الأسرة على أن يحتفظ فيها بمكتب.

رحت أتأمل النوافذ الأخرى. هنا رأيت ذلك الرجل يتشاجر مع زوجته في خلفية غرفة نوم تقع تحت مستوى بصري نوعًا.. لم أسمع حرفًا أو ربما كان هواء الليل يقذف لي بصوت لا أميزه جيدًا.. كانت مشادة قوية تطورت بسرعة إلى صفعة على وجهها ويبدو أنها صرخت في هستيريا لأن الصرخة بلغتني...

طبعًا لا أستطيع مساعدتها لأن البيوت أسرار، وما يحدث بين الرجل وزوجته يجب أن يبقى بين الرجل وزوجته. هي لم تطلب عونًا فلن أعرض العون قائلاً إنني كنت أتلصص!

قررت أن أدخل الشقة.. أعددت لنفسي بعض الشاي مع الشطائر، ورقدت على الأرض على الملاءة التي صارت فراشي وتناولت عشائي...

أخيرًا أغلقت النور ونمت..

في الثالثة بعد منتصف الليل نهضت لأن كل عظمة في جسدي كانت تؤلمني. ذهبت للحمام ثم عدت وأنا أحمل هم الرقاد فوق أداة

تعذيب محاكم التفتيش هذه..

هنا حانت مني لمحة إلى النافذة في البناية المواجهة إياها..

كانت مضاءة.. الكادر كما هو والمسند يخفي معالم من يجلس، وظهره لي على كل حال. لكن لماذا يجلس إنسان إلى مكتبه في الثالثة بعد منتصف الليل ما لم يكن (نيوتن)؟

كنت في الظلام ولا يراني أحد لذا وقفت فترة أكثر من اللازم. إنه يكلم شخصًا ما.. هناك من يقف أمام المكتب لكني لا أتبين ملامحه. الشخص الذي يتكلم يدور ليواجه النافذة ويخفي الجالس.. لا يراني وإن كان ينظر نحوي مباشرة.. أعتقد أنه امرأة..

فجأة رأيت الجسم المدبب في يده أو يدها.. يخرجه ويتأمله لبعض الوقت كأنه يحزم أمره، بينما ظهره لظهر الجالس على المقعد، ثم يستدير بسرعة ويغمد الجسم المدبب في الجالس. مسرح إيمائي ممتاز جدًا لا يختلف عن مسرح (النو) الياباني في شيء..

كان شعر رأسي قد انتصب متصلبًا. أغمضت عيني وفتحتها.. نحن لا نمزح هنا.. يبدو أن كلامي عن فيلم (النافذة

الخلفية) كان أدق من اللازم..

يبدو أن القاتل أو القاتلة وجد جثة ممددة على الأرض الآن.. إنه يقف عند النافذة يستجمع أعصابه.. ينظر إن كان هناك فضوليون في الخارج. ينظر لي.. لكني أعرف أن الظلام دامس عندي ومن المستحيل أن ترى شيئًا..

ظل يراقب الخارج للحظات، ثم حزم أمره وأغلق النافذة.. طبعًا ليتخلص من الجثة.

هل أبلغ الشرطة؟.. عن ماذا؟.. قد يكون كل ما رأيته رقصة ظلال. جربت التلصص ذات مرة في طفولتي ورأيت قصصًا بوليسية وجاسوسية كاملة ثم عرفت أن السبب هو رقص الظلال مع إرهاق نظري وتوقد خيالي..

هناك قصة للمنفلوطي يرى فيها شابًا سقيمًا من النافذة، ولكن المنفلوطي يرى كل شيء لدرجة أنه يقرأ الخطاب الذي يكتبه الفتى، وعندما يسقط الفتى يدخل المنفلوطي شقته لينقذه لا تعرف بأية معجزة. تلك القصة التي أشبعها العقاد والمازني سخرية وتهكمًا عندما راحا يطلقان مدافع (الديوان) على الأدب التقليدي.

لكن من أنا والمنفلوطي؟.. أنا رجل ضعيف البصر يراقب أحداثًا تقع في الجهة الأخرى من الشارع..

في الصباح قصدت تلك البناية فسألت البواب عما إذا كانت هناك شقق خالية في البناية. أكد لي في ثقة أن هناك شقتين في الطابق الخامس.. الخامس هو الطابق الذي أتكلم عنه. سألته عن شقة تطل على الشارع الرئيس فأكد لي أن واحدة من الشقتين تحقق هذه المواصفات.

-"لكني متأكد من أن هناك سكانًا.. أراهم أحيانًا"

نظر لي لوم وقال:

-"هل تتوقع يا بك أنني لا أحفظ كل ذبابة تدخل هذه البناية أو تخرج منها؟... طبعًا الشقة خالية.. -

شكرته كثيرًا وابتسمت..

ثمة احتمالان: الاحتمال الأول أنني مخرف كبير وهذا الذي رأيته ليلاً تلفيق ناجم عن الخيال والنعاس ووهن البصر. الاحتمال الثاني أنه لا يعرف.. وقد اعتدت أن من يتكلمون بثقة لا يعرفون شيئًا على الإطلاق..

على كل حال ليس في يدي ما أفعله سوى أن أواصل المراقبة..

لو أبلغت الشرطة أمس لكان موقفي غاية في السوء.

لكن النافذة لم تفتح قط منذ ذلك الحين، وأعتقد أن سكان الشقة تركوها.. لو كان ما رأيته صحيحًا فقد غادرت الشقة حقيبة كبيرة أو مجموعة من الأكياس البلاستيكية. سوف يجد أحدهم في قمامة قريبة أجزاء من جسد بشري مجهول ملطخة بالدم.

رحت أطالع الصحف على مدى أسبوع بحثًا عن شيء كهذا فلم أجد..

عدت أمارس حياتي، والخبر الجميل هو أن هؤلاء النصابين الذين ينهبون مالي ووقتي قد أنهوا مهمتهم وخرجت من سجني. صارت الشقة جميلة فعلاً، وبدأت مراحل نقل الأثاث..

قالت لي زوجتي وهي تفكر في عمق:

ـ"سوف آخذ حجرة مكتبك لتصير غرفة الأولاد.. لا أعتقد أنه يضايقك أن تنقل المكتب لغرفة الأولاد"

ـ"إنها قبلية.. سوف يقتلني الحر"

ـ"لا تنس أن هناك جهاز تكييف.. "

هناك في غرفة الأولاد حيث اعتدت أن أقيم وأنام على الأرض أثناء عملية الدهان، كان ذلك الكهربائي يقف على سلم خشبي يثبت بمعاونة صبيه ثريا برونزية عملاقة..

قلت لزوجتي وأنا أرمق هذه الثريا:

ـ"قبيحة جدًا.. من أين أتيت بها؟"

قالت في كبرياء:

ـ"بل هي تحفة فنية لكن الرجال حمقى.. كنت قد ابتعتها من (درب البرابرة) قبل الزواج ولم نعلقها.. ظلت ملفوفة كل هذه الأعوام وأرى أنها ستكون جميلة في مكتبك الجديد"

تنهدت.. الزوجات يعرفن جيدًا ما سيروق لك وما ستحبه ولا تستطيع الاعتراض.

دخل حمالان مفتولا العضلات ينقلان أجزاء مكتبي إلى الغرفة، بينما راحت زوجتي تحمل لفافات السجاد التي ستفرشها. بعد قليل عاد العاملان يحملان مقعدًا عملاقًا غريب الشكل..

ـ"ما هذا؟"

-"مقعد مكتب جديد بدلاً من ذلك المقعد الحقير الذي تجلس عليه. يخيل لي أنه مقعد مسروق من غرزة شعبية.. "

رحت أراقب المقعد.. لقد وضعوه بحيث صار ظهره للنافذة. المسند غريب الشكل عال جدًا يذكرك بمقعد قائد طبق طائر في فيلم خيال علمي..

نظرت للثريا.. للمقعد.. لجهاز التكييف....

كل هذا مألوف.. مألوف جدًا .

وفتحت النافذة ورحت أنظر إلى البناية المقابلة عبر الشارع. لم تكن نافذة إذن.. نحن نتكلم عن مرآة.. مرآة تريك ما سيحدث في الغد...

هناك شخص سيقتل وهو جالس على هذا المقعد وهذا المكتب.. سيتلقى طعنة في مؤخرة عنقه. لا أعرف من سيفعل هذا لكنه سيحدث... لقد صار المسرح معدًا.. ولو تلصص أحد علينا من البناية المقابلة لرأى ما رأيته أنا في تلك الليلة..

إن لغزًا رهيبًا يحيط بتلك الشقة ولا شك في ذلك..

هنا سمعت صوت أحد الحمالين يسألني:

-"هل نبدأ تجميع المكتب يا أستاذ؟"

قلت في حزم وأنا أخرج من الغرفة:

-"لا.. لا أريد هذا المقعد القبيح.. سأعيده للبائع أو أحرقه... لا أريد أن يكون مكتبي في هذه الغرفة.. لا أريد ذلك بأي ثمن.. "

نظرت لي زوجتي في دهشة باعتباري قد جننت أخيرًا..

استدرت لها وقلت بلهجة آمرة:

-"وكذلك هذه الثريا.. لا أريدها. سأغادر البيت لمدة ساعة وعندما أعود أتوقع ألا أجد شيئًا من هذا كله.. "

لست من الطراز الدكتاتور.. لكن المرء يحتاج لهذا أحيانًا عندما يتعلق الأمر بحياته ذاتها!

المقابلة

خطأ واحد يمكن أن يدمرني..

أنا بحاجة لهذه الوظيفة.. فعلاً أنا بحاجة لها..

كنت جالسًا في هذه القاعة الواسعة التي توحي بالوحشة..

لا يوجد أثاث من أي نوع، وإنما هي مساحة خالية بيضاء نظيفة.. فقط هناك مقعدان.. أجلس على واحد منهما مسندًا رأسي إلى الجدار، وعلى بعد ثلاثة أمتار يجلس ذلك الرجل الضخم بادي الخشونة..

اثنان فقط هما المحظوظان اللذان بقيا من هذا السباق المحموم.. لحظة النجاح تقترب جدًا لكن لحظة الفشل تقترب كذلك. لا تملك إلا أن تحسد المحظوظين الذين فشلوا منذ البداية.. هؤلاء استراحوا..

أما الذي سيفشل هنا بعد هذا كله فلسوف تكون لوعته لا توصف.. قد لمست يده الشاطئ فعلاً ثم جاءت موجة عاتية أعادته لقلب المحيط.. لقد كان بعيدًا عن النصر جدًا ثم اقترب جدًا.. هناك نسبة 50٪ أن يرحل أحدنا تعسًا يبكي حظه العاثر..

لقد أمضيت أسبوعًا في هذه الاختبارات وحان الوقت..

ينفتح الباب في نهاية الممر وتظهر تلك السكرتيرة الرشيقة التي توحي لكنتها بأنها مصرية قضت حياتها مع الأجانب..

-"د. مازن مصطفى؟"

يقول الرجل الضخم إنه هو، فتطلب منه أن يمضي معها..

مشوار طويل جدًا نحو نهاية القاعة وصوت كعبيها يصمان الأذن... ثم يختفيان وأجلس أنا أدخن قلبي في توتر.. رباه!... ماذا لو كان بارعًا جدًا؟ سوف تعود لتقول لي إنها شاكرة وتتمنى لي فرصة أخرى..

لابد أنني أمضيت نصف ساعة في هذه القاعة الباردة العارية.. ثم سمعت صوت الحذاء من جديد وظهرت السكرتيرة من جديد لتقول:

-"د. محفوظ حجازي؟.. هلا تبعتني من فضلك؟"

هكذا نهضت ومشيت وراءها ومعدتي تتقلص..

في نهاية الممر كانت هناك غرفة صغيرة. في الغرفة مكتب عليه جهاز كمبيوتر ومقعدان.. هناك كذلك فراش يشبه أسرة الكشف (وهذا غريب فعلاً). قالت وهي تخرج وتغلق الباب:

-"مستر (مليجان) آت حالاً.."

جلست على المقعد أفكر في معنى هذا كله.. ألقيت نظرة على

شاشة الكمبيوتر فرأيت صورة رقمية كبيرة لي. الصورة التي أخذوها يوم قدمت أوراقي..

وقبل أن أقرأ المكتوب دخل رجل أمريكي أشيب الشعر متأنق يرفع نظارته على مقدمة رأسه، وكان يدخن بنهم مما جعل المكان خانقًا.. الطريقة الودود المميزة لمن يريد إسقاطك.. أعرفها.. أعرفها..

-"دكتور حجازي.. أرجو ألا أكون قد تأخرت.. "

ثم جلس وراء شاشة الكمبيوتر وبدأ يدخل بعض البيانات وقال لي:

-"لقد اجتزت كل الاختبارات، لكننا ما زلنا بحاجة لاستيضاح بعض المعلومات في حياتك.. مثلاً قلت إنك متزوج لكنك غير مقيم مع زوجتك حاليًا.. فما السبب؟"

كيف عرفوا هذا؟.. لم أذكر حرفًا من المشاجرة مع زوجتي بصدد كعك العيد، عندما قلت لها إنني غير قادر على كل هذا التبذير.. فكان ما فعلته من دون كلمة واحدة هو أن جمعت ثيابها، وأخذت العيال معها وذهبت لتقيم عند أمها في المنصورة.. سوف

أستعيدها طبعًا بمجرد الانتهاء من هذه الوظيفة..

طبعًا لا يمكن ذكر هذه التفاصيل. لذا قلت وأنا أبتلع ريقي:

-"الخلافات تروح وتجيء في الحياة الزوجية"

هز رأسه كأنه يفهم.. تبًا.. أعرف هذه العلامات.. لم ترق له الإجابة قطعًا.. كانت سيجارته قد انتهت فأطفأها في كوب قهوة ورقي أمامه وأخرج سيجارة أخرى طويلة أشعلها بقداحة ذهبية، فأدركت أنه لا يبالي بصحته لحظة..

قال لي وهو يراجع البيانات على الشاشة:

-"في العام 1981 حدثت مشادة مع زميلك في العمل.. (إيهاب أل كارساوي).. "

-"(إيهاب الخرصاوي).."

-"نعم.. نعم.. فقدت أعصابك ودفعته دفعًا من أعلى الدرج.. لولا حظه الحسن لسقط وتهشم رأسه.. "

كيف عرفوا هذا أيضًا؟.. بالطبع لم أذكر هذه القصة في أية معلومات طلبوها مني. إنهم يعرفون تفاصيل كثيرة وهي علامة

مطمئنة.. لربما يعني هذا البحث الدقيق أنهم يهتمون بي..

-"كنت أمزح لا أكثر.. دعابة ثقيلة نوعًا.. "

هز رأسه في عدم اقتناع وواصل إدخال البيانات.. ثم سألني:

-"كنت في إنجلترا أثناء تحضير رسالة الدكتوراه.. وزرت بعض الجمعيات الروحية.. هل هذا صحيح؟"

-"كان لي صديق مهتم بهذه الأمور وقد أخذني لبعضها.. بعض هذه الجمعيات محترم أو يحاول أن يكون كذلك.. "

-"لكنك لم تنضم لأي منها.. "

-"بالطبع لا.. "

-"ولم تقم بالمشاركة في جلسات استحضار أرواح.. "

-"بالطبع لا"

هذه المرة كنت أكذب طبعًا.. لكني لم أرد أن أبدو له مؤمنًا بالخرافات.. أشعر بعصبية وبأن الغرفة حارة جدًا... الأمور لا تسير على ما يرام..

قلت له فجأة:

-"ماذا عن الرجل الذي دخل قبلي؟.. هل نجح؟"

نظر لي مليًا وابتسم ومن الواضح أن هذا الفضول لم يرق له..

فضل عدم الكلام.. وعاد ينظر للشاشة ثم قال:

-"هل جربت أية مخدرات أيام الكلية؟"

-"نعم.. ولا.. "

-"هل لي أن أفهم؟"

كنت أدخن السجائر العادية لفترة قصيرة ثم توقفت منها.

وفي تلك الليلة أراد بعض رفاقي أن يمزحوا معي فقدم لي أحدهم لفافة تبغ أشعلها. سحبت نفسًا منها فبدا لي الدخان ذا رائحة كريهة غريبة.. نظرت للفافة فرأيت أن طرفها الملتف غريب الشكل كذلك. استغرقت ربع دقيقة لأفهم ثم أتخلص منها وأنا أسب وألعن وهم يضحكون حتى دمعت عيونهم.. لن أدخن شيئًا كهذا أبدًا فإن دخنت فليكن وأنا أعرف ما أفعله..

-"وهل أقلعت عن هذا؟"

-"أقلعت عن ماذا؟.. لم أبدأ أصلاً حتى أقلع.. "

نظر لي بعينيه الرماديتين العجيبتين، ورأيت بوضوح

الفكرة في رأسه (أنا كذاب). لكن كيف أثبت العكس؟.. شكه هذا جعلني مريبًا فعلاً..

عاد ينظر للبيانات أمامه ثم قال:

-"عقيدتك الدينية.. مسلم. أليس كذلك؟.. حسن.. أنا لست خبيرًا في شئون الإسلام لكنني أعرف أنكم تتوقفون عن الطعام والشراب شهرًا كاملاً كل عام.. رمضان.. أليس كذلك؟.. هناك من رآك تشرب كوبًا من العصير في نهار رمضان.. هل هذا صحيح؟"

لابد أنه رمضان منذ عامين.. نوبة من نوبات نقص السكر حيث شعرت بأنني غير متزن والعرق البارد يغمرني، مع تلك الرجفة في أناملي.. عرفت على الفور أن مستوى السكر ناقص وطلبت من العامل أن يحضر لي عصيرًا.. لو لم أفعل هذا لدخلت في غيبوبة.. لم أفعلها سوى مرتين أو ثلاث مرات في حياتي..

هؤلاء القوم أجروا عني بحثًا مدققًا لا يمكن لجهة أمنية أن تجريه.. لهذا استغرق الأمر كل هذا الوقت إذن.

كان ذلك الإعلان الخاص بهم في جريدة واسعة الانتشار، يقول إنهم شركة أمريكية تقدم فرص العمل والإقامة في الولايات

المتحدة. يشترطون إجادة اللغة الإنجليزية ودرجة دكتوراه في أي تخصص. الراتب يسيل له اللعاب فعلاً، كما أن السن التي يطلبونها تناسبني.. ذهبت أولاً على سبيل التجربة والدعابة، ثم فوجئت بأنني أنجح بلا توقف وأصل للاختبار التالي.. في النهاية بدأت أصاب بالرعب.. وشعرت بأنني يجب أن أحصل على هذه الوظيفة.. لن أتحمل الحياة لو لم أحصل عليها.

أشعل لفافة تبغ أخرى فقدرت أنه سيموت بسرطان الرئة قبل أن ينهي الاختبار، وسألني:

-"في العام 1975 ارتبطت بقصة حب مع فتاة.. اسمها (غيداء النباوي) وكانت تهيم بك حبًا ثم تخليت عنها.. هل لديك تفسير؟"

قلت في برود للمرة الأولى:

-"سيدي.. ألا ترى أنكم تبالغون في التلصص على حياتي الشخصية؟.. أنت أمريكي وقدر علمي أن المسائل الشخصية لا دخل لها في العمل عندكم.. هذا السلوك كان يروق لي فيكم، لكن من الواضح أنني كنت واهمًا.."

قال وعيناه تتسمان:

-"طبيعة العمل يحتاج إلى أن تعرف خلفياتك العاطفية.. بوسعك طبعًا ألا تجيب عن هذا السؤال.."

-"وهذا ما سأفعله.."

ساد جو من التوتر فلا أسمع صوتًا سوى صوت دقاته على مفاتيح الكمبيوتر.. بعد قليل سألني:

-"سياسيًا.. هل تكره الولايات المتحدة؟"

تمهلت قليلاً لدى هذه النقطة.. يجب أن أكون حذرًا.. ربما لو كذبت.. لكن عينيه قالتا لي إن كذبتي لن تخدمه.. قلت له:

-"أحبها كثقافة ناعمة.. السينما والثقافة الأمريكية.. أكرهها عندما نتكلم عن فيتنام وفلسطين والعراق.."

طبعًا لو كانوا يتابعون تاريخي بهذه الدقة فهم يعرفون مظاهرات أيام الكلية وحرق العلم الأمريكي مرارًا، ومعنى هذا أنه لا يصدق حرفًا مما أقول..

بدأت أتململ فالجلسة لم تكن موفقة.. لقد فسد كل شيء كما هو واضح.. أو كما يقول الغربيون I blew it (لقد أفسدت كل

شيء).. على كل حال كان الأمر أجمل من أن يكون حقيقيًا أو أن أفوز به.. هناك محظوظون ينجحون في هذه الأمور، أما أنا فلو كان رزقي يعتمد على القابلات الشخصية لهلكت جوعًا منذ زمن سحيق..

يبدو أنه انتهى هو الآخر.. ظل ينظر للشاشة بعض الوقت ثم قال:

-"إجاباتك غريبة جدًا.. مراوغة لا يمكن الإمساك بها.. ومن الواضح أنك لا تتورع عن الكذب إذا كان في هذا منفعة لك.."

لم أعلق.. فليقل ما يشاء.. لقد انتهى الأمر..

قال وهو يشعل لفافة تبغ جديدة:

-"علامات استفهام كثيرة وظلال تحيط ببقاع عديدة من حياتك.. هذا واضح.. وهذا هو ما يدفعني للاعتقاد أنك رجلنا!!"

رفعت عيني له في عدم فهم فقال:

-"لقد نجحت!.. أنت رجلنا الذي اخترناه بين 214 متسابقًا!"

نهضت للحظة غير مصدق، فقال باسمًا:

-"إن منظمتنا تعمل في الولايات المتحدة أصلاً، لكننا قررنا

أن تكون لنا فروع في أرجاء العالم.. كل شيء يوحي بأنك رجلنا في مصر.. نحن نؤمن أن الشيطان عائد لا محالة ليملأ الأرض جورًا، لكن لابد من إعداد البيئة المناسبة له.. لهذا كنا بحاجة لرجل كئوب مثلك.. رجل تخلى عن حبيبته وزوجته ويدمن المخدرات ويتخلى عن الشعائر الدينية، وله علاقة بالشياطين وتحضير الأرواح.. رجل غضوب يوشك على قتل صديقه في لحظة ثورة، ومستعد كي يعمل في الدولة التي حرق علمها مرارًا.. أهنئك..!.. لقد حصلت على الوظيفة!"

-"هل تعني أنكم؟...."

-"نعم.. بالطبع.. نحن شيطانيون Satanics!"

لا أعرف ما حدث بعد هذا لأنني كنت أركض في الخارج ركضًا، بينما صوت الرجل يلاحقني من بعيد:

-"دكتور (حجازي)!.. لم نتكلم بصدد الراتب بعد!!"

كوخ في (ليرج)

الكوخ الذي أحكي عنه هنا كان في اسكتلندا..

أنت تعرف أنني قضيت هناك فترة لا بأس بها من حياتي، وبشكل ما أعتبر تلك البلاد الجميلة وطنًا ثانيًا. من الغريب أن

كثيرًا من المبعوثين المصريين هناك أحبوا البلاد ووجدوا لطفًا كبيرًا من أهلها، في ذات الوقت الذي كانت علاقة مصر متوترة فيه مع إنجلترا بعد العدوان الثلاثي مباشرة، وهو درس آخر عن أن الشعوب لا تتصرف ولا تشعر بالضبط كما تريد لها الحكومات.. إن إنجلترا بلد استعماري لكن أهلها لم يكونوا بهذا السوء. نفس ما أشعر به اليوم كلما قابلت أمريكيين فوجدتهم أشخاصًا شديدي الظرف والحيوية، بينما حكومتهم تحدث المذابح في العراق وأفغانستان، بعد ما أحدثتها في فيتنام وكوريا..

كان لي صديق حميم اسمه (ويليام مكورميك).. ثرثار جدًا ويهوى اللهو والمرح، وعن طريقه عرفت (جريناداين) الحسناء التي كانت تتحدث كثيرًا عن سحر الرجال الشرقيين. لم أكن وسيمًا على الإطلاق لكني لم أكن وحشًا مرعبًا... يبدو أن فكرة الزواج توهجت في رأسها لفترة ثم عدلت عنها.

كنا في (ليرج). (ليرج) تقع في منطقة تروق للسياح كثيرًا في أسكتلندا، حتى أنهم يطلقون عليها اسم (اسكتلندا التي لم يرها أحد)، وهو تعبير متناقض فكيف يكون المكان مزارًا سياحيًا ولم يره أحد؟.

هناك على ضفاف نهر (شين) أو (لوخ شين) – كل نهر في اسكتلندا اسمه (لوخ) – كنا نمشي ساعات طويلة، وزرنا الكثير من القلاع مثل قلعة (ماكبث).. غطريف كودور.. كذلك بيت دوق سوذرلاند (دونروبين) رائع الجمال، حيث يمكنك أن ترى النسر الذهبي لو كنت سعيد الحظ..

ثم بدأ الجليد يتساقط...

جميل أن يتساقط الجليد كما ترى، لكن المشكلة هي إنني كنت أمشي وحيدًا في ذلك اليوم. لقد غادرت كوخنا الذي أقيم فيه مع الأصدقاء في العاشرة صباحًا وقررت أن أمشي وحدي بعض الوقت قرب النهر.

كانت الشمس ساطعة والسماء صافية. بعد ساعة بدأت السماء تتلون باللون الرمادي فقلت لنفسي إنه لا مشكلة هنالك. لكن البرد يشتد..

ثم بدأ الجليد يسقط. ليست عاصفة ثلجية لكني فعلاً لم أعد قادرًا على المشي دعك من إنني سأتجمد بردًا.. ربما اعتبر البريطانيون هذا الجو منعشًا لكني قادم من بلاد حارة قائظة لا تمزح في هذه الأمور. عندما تهبط الحرارة درجتين يلبس قومي

التلفيعات والكلسونات الصوفية ويبطنون ثيابهم بالجرائد. نحن شعب لا يطيق البرد..

كنت في ورطة.. فلم أعد بالفعل قادرًا على تذكر طريق العودة خاصة وقد صارت الرؤية ضبابية.. كل شيء تملؤه بقع بيضاء تسقط من أعلى...

ثيابي خفيفة نوعًا ولا تسمح بأن يطول البحث، وحتى لو قرر (ويليام) البحث عني فلن يعرف إلى أي اتجاه مشيت..

هنا رأيت تلك الأكواخ.. أكواخ تحيط بها أشجار الشربين.. عددها خمسة أو ستة. يبدو لي أن هذا هو الحل الموفق الوحيد. الأجمل أن يكون هناك ناس، لكني قدرت أنني لن أجد أحدًا على الأرجح.. الجو كله يوحي بموضع مهجور.. سوف أنتظر الفرج.. عودة الشمس..

بصعوبة بلغت أول الأكواخ ودققت الباب فلم ينفتح.. كان الباب يتأرجح مع العاصفة محدثًا صريرًا محببًا.. لا توجد دببة في اسكتلندا على قدر علمي، فلن أجد دبًا ينتظرني بالداخل مغضبًا..

من الغريب أن هناك آثار أقدام كثيرة خارج الكوخ على طبقة

الجليد التي بدأت تتكون.. هذا المكان مطروق لكن من الواضح أنه لا يوجد أحد الآن..

واربت الباب أكثر ودخلت..

كان الكوخ خاليًا كما توقعت، لكنني لم أحب ما رأيت كثيرًا..

كانت الأرض مليئة بزجاج مهشم.. دققت النظر أكثر فوجدت أنها زجاجة ويسكي مهشمة إلى ألف قطعة. لا مشكلة هنالك.. من حق مالك الكوخ أن يهشم زجاجة..

الزجاج الذي يغطي هذه النافذة مهشم يتسرب منه هواء بارد وندف ثلج. هناك لوح خشب على الأرض سوف أحاول تثبيته إلى حد النافذة..

ثم تجمدت..

هناك الكثير جدًا من بقع الدم.. دم أحمر لم يسود بعد يلطخ الأرض.. يلطخ النافذة من الداخل...

مذبحة معينة قد دارت هنا منذ وقت ليس بالطويل.

ونظرت لأرضية الكوخ الخشبية فرأيت ما يشبه الحدود

الخارجية لإنسان رسم بالطلاء على الأرض.. جسد إنسان مفرود تناثرت أطرافه في جهات أربع.

هذا مشهد مألوف.. كانت هنا جثة وكان هنا رجال شرطة، وهم يلتقطون الصور ثم يرسمون حدود الجسد بالطلاء ليعرفوا موضع سقوطه بالضبط قبل أن ينقلوه..

لقد حملني حظي الحسن إلى مسرح جريمة قتل منذ فترة وجيزة...

شعرت بانقباض شديد.. لست جبانًا ولا يمكنك أن تلومني، لكن المكان المقفر الصامت والظلام الذي غمر الكون مع أننا وقت الظهر. كل هذا جعلني غير راغب في البقاء هنا لحظة واحدة.

غادرت الكوخ مسرعًا لأخرج إلى حيث العاصفة وقصدت كوخًا آخر.. لكن.. إنه مغلق بإحكام بقفل ثقيل وجنزير. اتجهت لكوخ آخر وجربت..

لا شك في أن كل هذه الأكواخ مغلقة بإحكام، فلا مفر لي سوى أن ألجأ لهذا الكوخ الكريه.

عدت له وأغلقت الباب، ثم بحثت عن لوح خشب رقيق

ثبتته إلى النافذة، ثم وجدت حبلاً فرحت أحاول أن أثبت به هذا اللوح..

لقد ساد الظلام الكوخ بعد ما انغلقت هذه النافذة. أريد نارًا.. لابد من نار.

كانت هناك مدفأة بها بعض جذوع الخشب وسائل إشعال موقد فسكبته على الخشب، ومن حسن الحظ أنه كانت في جيبي علبة ثقاب.. هكذا زرعت الزهرة الحمراء المبهجة ورحت أصطلي بدفئها.. صحيح أن الظلال من حولي لم تبعث الكثير من المرح لكني على الأقل أمنت شر البرد.. وعرفت أن الدفء سوف يتحول إلى نعاس سريعًا. لا بأس.. هذا ليس بيت الدببة وأنا لست طفلاً.. لا خطر علي من النوم هنا، وعندما أصحو سيكون الجو أفضل بالتأكيد..

أغمضت عيني..

بدأت أحلم.. وكانت كل أحلامي في مصر.. أقابل أصدقاء الطفولة وأمشي على ضفة النيل..

فتحت عيني للحظة فخيل لي كأن هناك عددًا من الرجال

يقفون في الكوخ معي.. يقفون هنا وهناك ويتكلمون بلكنة اسكتلندية مفرقة لم أفهمها جيدًا..

فتحت عيني من جديد في رعب. وكما توقعت تلاشى كل شيء..

هلاوس.. ربما من الإرهاق.. ربما هي أحلام تسربت من خلف جدار النوم الذي تكلم عنه الخواجة لافكرافت.. ربما البرد قد أثر على خلايا مخي، لكن.. كف عن الميوعة.. نحن لسنا في ألاسكا..

من جديد ثقل جفناي...

عدت أحلم.. فتحت عيني للحظة فبدا لي أن هناك شيئًا غريبًا..

سمعت صوت سبة أسكتلندية بذيئة فنهضت..

وجدت ذلك الرجل الفظ المشعر كأنه من رجال الكهف.. أحمر العينين كأنه مسعور.. يلبس ثيابًا رثة توحي بأنه حطاب أو فلاح.. أنف ملتهب يشي بأنه سكير أصيل..

كان ينظر لي في كراهية.. وفي يده رأيت بلطة.. نعم بلطة..

نهضت مذعورًا فمددت يدي أتقي شره.. لا ليس يدي فلسوف تطير بسهولة تامة.. هذه البلطة تبدو حادة.. قلت له وأنا أرتجف:

-"لا تسئ الفهم يا سيدي.. لقد فاجأتني العاصفة وكان علي أن أجد ملجأ أو أموت.. سوف أغادر الكوخ حالاً!"

يبدو أنه لا يفهم الإنجليزية، لأنه هوى بالبلطة علي فتفاديتها بمقدار سنتيمتر واحد..

-"أنت مجنون!... قلت لك إنني.....!"

هنا هوى بالبلطة من جديد فاصطدمت بالنافذة وهشمت زجاجها..

هنا وقعت يدي على سلاح.. زجاجة ويسكي ممتلئة سليمة لم أرها من قبل فوق رف المدفأة.. أمسكتها من عنقها وهويت بها على الجدار فتحطمت.. صار في يدي سلاح قاطع خطر لكنه لا يقارن بالبلطة، خاصة أن سلاحه يبقيه بعيدًا عني....

هنا تسارعت ضربات قلبي وعمل الإرهاق دوره.. لا.. من فضلك.. لا تفقد الوعي.. لو فقدته لن تصحو في عالمنا هذا.. أرجوك

الا..

لكن قلبي لم يصغ وسقطت في ظلام عميق..

فتحت عيني من جديد. لا يبدو أنني في العالم الآخر.. أنا في الكوخ.. منهك تمامًا لكني بالتأكيد حي وأطرافي سليمة.. لم يحدث شيئًا..

الكوخ يبدو مختلفاً..

على رف المدفأة هناك زجاجة ويسكي مليئة.. أنا موقن أنها لم تكن هنالك.. أنا هشمتها.. نظرت للأرض فلم أر بقع الدم التي كانت هناك، وبالتأكيد لم يكن تخطيط رجال الشرطة موجودًا..

ما معنى هذا؟.. هلوسة أخرى؟

لحظة من فضلك.. الرجل هشم الزجاج بالبلطة.. فهل معنى هذا أن الزجاج كان سليمًا؟.. عندما دخلت الكوخ كان مهشمًا فمن أين جاء بزجاج يهشمه؟..

أين الزجاج المهشم الذي كان يملأ الأرضية؟

من هذا الرجل الذي هاجمني وماذا كان يريد؟

كنت قد بلغت النهاية، فأسرعت بالفرار من هذا الكوخ..

لن أنتظر لحظة أخرى وسط هذا الجحيم.

وفي الخارج كانت العاصفة قد هدأت وبدأت الشمس تغمر المكان خجولاً كما يجب.. إنه العصر..

رحت أركض حتى وجدت بعض معالم الطريق التي أعرفها.

من بعيد هذه الظلال لا يمكن أن تكون سوى (سونروبين).

لم يصدق أحد قصتي.. وقد اصطحبت (ويليام) إلى هذا الكوخ بعد ذلك، فلم نجد ما يريب. لم تكن هناك بقع دم ولا تخطيطات على الأرض ولا قطع زجاج مكسور..

قال لي:

-"الهلاوس تحدث مع البرد أكثر مما تتصور.. هذه حقيقة"

ابتلعت ريقي ولزمت الصمت في خجل. هنا رأينا ذلك الحطاب الشاب يمر من بعيد، فلما رآنا صاح :

-"ابتعدا أيها الشابان عن كوخ (جوناثان) المخبول.. قد يقتلكما بالفأس لو رآكما هنا.. "

هرعت في لهفة أسأله عن هذا الذي يقوله فقال:

-كل هؤلاء الحطابين رحلوا لكن (جوناثان) ظل يعيش

هنا، وهو يتصرف كالحيوانات الضارية. لا علاقة لنا به سوى أنه يبتاع منا الطعام والخمر.. يقولون إن الكوخ ليس على ما يرام كذلك"

لما رحل قلت لـ (ويليام):

ـ"هل تعرف ما أفكر فيه؟.. هذا الكوخ يتصرف بطريقة غير عادية هو الآخر.. لقد جن الرجل بسبب الكوخ، أو جن الكوخ بسبب الرجل.. الزمن داخل الكوخ يتحرك بالعكس..! "

ـ"لا أفهم"

ـ"كنت سأنتظر في الكوخ فيدخل جوناثان ويحاول قتلي.. يحطم زجاج النافذة.. أضربه بزجاجة الويسكي لكنه يتمكن من قتلي.. بعد هذا يصل رجال سكوتلانديارد ليفحصوا الكوخ الذي تغطى بالدماء.. يرسمون تخطيطاً حول الوضع الذي لقيت حتفي فيه.. ما حدث هو أنني رأيت هذه القصة بالمقلوب!.. أول ما رأيته هو الدم والتخطيط.. ثم رأيت رجال سكوتلانديارد يفحصون مسرح الجريمة.. ثم هاجمني جوناثان فضربته بالزجاجة.. ثم خرجت من الكوخ!"

قال لي:

ـ"قلت لك إن البرد أتلف خلايا مخك يا صديقي"

لكني لم أصغ.. كنت أرتجف.. ليس من البرد ولكن من تخيل الصورة.. صورة جسدي الممزق الدامي يرقد بالضبط وسط الخطوط التي رسمها رجال الشرطة على الأرض.. أنا رأيت المكان الذي سترقد فيه جثتي...

أما لماذا نجوت، فلأن كل شيء حدث بالعكس.. هكذا كان محتوماً أن أخرج من الكوخ سليماً في النهاية، لأن هذه هي البداية الأصلية!... هل فهمت شيئاً؟.. صدقني أنا مثلك!

بسبوسة وأشياء أخرى

لم يجدوا منها سوى كفين..

هذه هي الحقيقة المؤلمة التي لا يجب أن نخبر الآنسات هنا بها. فالمرء يحب ألا يموت.. فإذا قبل الموت فليكن هذا بجسد

كامل الأعضاء. عرفت هذه القصة من الدكتور مصطفى.. الأغرب أنهم طلبوه هو بالذات كي يأخذوا رأيه لأنهم شعروا بأن في القصة دورًا ما للطب النفسي. لم يكن لديه الكثير مما يقال. كفان صغيرتان مكتنزتان كأنهما كفا دمية وجدهما جامع القمامة في ذلك الحي وأصابه الهلع فأبلغ الشرطة..

دقت أجراس كثيرة، وعلى الفور تذكر رجال الشرطة (نهلة) الطالبة التي اختفت منذ أيام، ولم يجدوا لها أثرًا..

(نهلة) كانت فتاة رقيقة مهذبة، دقيقة جدًا كأنها دمية يابانية، وكانت طالبة في واحدة من تلك الكليات التي تضطر الفتاة للعودة لدارها في الظلام. كان عليها أن تقطع مسافة لا بأس بها في منطقة مقفرة مجاورة لشريط السكة الحديدية.. لا لم يبتر القطار يديها لأنه لا يفعل ذلك بهذه النظافة.. هذا البتر عمل واحد خبير. فقط هناك آثار عنف شديد على الكفين كأنما كانا يقرعان شيئًا بلا توقف، كما أن الأظفار قد انتزعت من مكانها، وهناك حروق واضحة في اللحم.

لم يطلب مختطفها مالاً ولم يهدد بشيء ولم يعد بإرسال إصبع قدمها في البريد كما يفعلون في الأفلام الأمريكية. فقط

اختطفها لغرض بسيط هو قطع كفيها..

هل ما زالت حية؟.. ربما.. لكن رجال الشرطة رجحوا أن لا.. كان على قاتلها أن يتخلص منها بعد هذه الفترة الطويلة إما حية أو ميتة..

وكان رأي د. مصطفى ببساطة هو أن من اختطفها وغد سادي وسايكوباثي.. هذا رأي لا ينير الطريق كثيرًا فأنا أعرف مليون واحد يحمل هذه الأوصاف بمن فيهم أنا نفسي..

هنا اتصل بي د. مصطفى. عرفت من صوته الكسير المبحوح أنه راغب في الاستنارة بعقلي الراجح وحكمتي، وهكذا قابلته في مكتبي.. بدا لي كبناية آيلة للسقوط فعلاً..

حكى لي القصة وهو يرتجف، ودخن مئة سيجارة وشرب ألف قدح قهوة.. هذه علامات سيئة لأنني لم أره يدخن إلا مرة واحدة في حياتي..

في النهاية سألته السؤال المنطقي الوحيد:

-هل أنت من اختطف هذه الفتاة؟.. مظهرك يوحي بأن تأنيب الضمير يقتلك "

ابتسم في إرهاق وقال:

-"ليت هذا صحيح.. كنت سأسلم نفسي للشرطة وأنال الخلاص.. لكني أخشى أن أكون قد ارتكبت خطأ جسيمًا"

(صلاح أبو عياد).. هل تعرفه؟.. إنه مريض نفسي وسادي وسايكوبات.. تثبيت عنيف على الطفولة التي عومل فيها كمعتقلي النازية، وهو يكره كل الناس وكل الموجودات.. يعيش وحده بعد الطلاق لأنه سكب الملوخية الساخنة في قفا زوجته. لو كان هناك رجل في مصر كلها يمكن أن يقطع كفي فتاة رقيقة فهو (صلاح أبو عياد)..

كان صلاح نزيل المصحة النفسية وقد أشرف د. مصطفى على علاجه، وبعد عامين قرر أنه صالح للاختلاط بالمجتمع... لقد شفي.. وهكذا اجتمعت لجنة متسرعة يحرك أمورها د. مصطفى، واقتنعت بسرعة بأن هذا المجنون يمكن أن يخرج ويجوب الشوارع..

قال د. مصطفى:

-"ظللت أعتقد أنني على حق حتى حدثت هذه الجريمة.. الفتاة اختفت في مكان قريب جدًا من مسكن صلاح.. أنا أعرف

نفسيته كما أعرف كفي.. هذه الجريمة تحمل نفسيته وبصماته. هو لم يقترف مثلها من قبل لكنه قادر على عمل ذلك.. أخشى أنني ارتكبت خطأ مروعًا.."

ثم أشعل لفافة تبغ أخرى حتى صرت أوشك على أن أرى سرطان الرئة يتكون تحت ضلوعه، وقال:

-"منذ يومين اختفت فتاة أخرى اسمها (نجلاء).. طالبة ثانوي رقيقة صغيرة الحجم كانت ذاهبة لدرس خصوصي.. قرأت هذا في الصحف.. لا معلومات عنها.. يمكنني تخمين مكانها بلا جهد.."

-"ولم تبلغ الشرطة؟"

-"ماذا أقول لهم؟.. لا أعتقد أن الفتاة في داره.. وماذا لو لم يصدقوا؟.."

رحت أفكر بعض الوقت ثم قلت له:

-"أولاً أنت بحاجة لطبيب نفسي بارع!!.. أنا أمزح!.. ثانيًا لم لا نذهب لزيارة هذا الصلاح في داره؟.. أنت طبيب ممتاز تحب أن تطمئن على مرضاك"

نظر لي بعينين بزغ فيهما الأمل...

كان البيت مكونًا من طابق واحد يجاور فتحة ضخمة في الجدار الذي يفصله عن السكة الحديدية.. الكلاب ترعى بحرية تامة وهناك طيور تلتقط القمامة.. أكوام قمامة في كل مكان. أقرب بيت على بعد خمسين مترًا.. على كل حال عندما يمر قطار يمكن لأي واحد أن يحمل لداره فيلاً دون أن يلاحظ أحد. البيت نفسه مشروع بيت مكون من القرميد الأحمر، وهناك فناء علقت به بعض الثياب المتسخة المغسولة فرضًا. دققنا الباب مرارًا فعوى كلب ثم سمعنا من يسب أمنا من الداخل، وبعد قليل ظهر لي وجه.. هذا وجه مريض نفسي لا شك في هذا.. وجه سفاح مجنون.. لو كنت الحاكم لأعدمت هذا الرجل بلا مناقشة..

عرف د. مصطفى فرحب به بحرارة ودعانا إلى الداخل..

كان البيت حقيرًا كما توقعت. لكن لا توجد غرف داخلية أو أقبية.. أعد لنا بعض الشاي ثم ملأ بيده طبقًا من شيء مقزز ووضعه أمامنا وحلف أن نأكله.. ما هذا؟.. بسبوسة.. هذا المجنون صاحب مزاج إذن..

مثل د. مصطفى دوره جيدًا، فراح يسأله عن حاله بعد الفقر

بالحرية، فأطلق سبة بذيئة وقال إن الناس أولاد حرام يصرون على أنه مجنون.. لكنه يجد رزقه من حين لآخر والفضل لأولاد الحلال مثل د. مصطفى.. سأله د. مصطفى عن الأغاني فضحك ضحكة عابرة.

كنت قد التهمت قطعة بسبوسة فتذكرت ما قاله بيرم التونسي عن بسبوسة مماثلة (في صينية.. نحاس قديمة معدية.. واللي يطول منها وقية.. يبات مغطي يا مستمعين). فقلت لد. مصطفى أن الوقت قد حان للرحيل.. هكذا مد يده في جيبه ووضع ورقة مالية أمام الرجل..

لما غادرنا المكان سألني د. مصطفى عن رأيي فقلت وأنا أعتصر معدتي:

-"أي.. يبدو مريبًا جدًا.. لكن لا توجد آثار على أن هناك فتاة شابة مختطفة هنا.. أوع.. لم أفهم موضوع الأغاني هذا.."

-"إنه يعاني وسواسًا قهريًا يربطه بأغاني الطفولة.. هذا ناجم عن حرمانه من طفولته على ما أظن."

هنا تصلبت وقد تذكرت شيئًا...

جدتي تضعني على حجرها وتمسك بكفي الصغيرة المكتنزة وتهزها:

ـ" سوسة سوسة.. سوسة كف عروسة.. سوسة واللي يصقف.. يستاهل مني بوسة"

قلت له وأنا أشعر بقشعريرة:

ـ"كفا الفتاة.. قلت إنهما يبدوان ككفي دمية.. كف عروسة.. مكتنزتان صغيرتان.."

ـ"لا أفهم.."

ـ"يجب أن ندخل بيت هذا الرجل في غيابه.. قل لي.. أنت صديق رئيس المباحث هنا.. سوف ترتب لنا أن يستدعوه في قسم الشرطة لغرض ما.."

ـ"هل نقتحم بيتًا ليس لنا؟"

ـ"أعتقد أن الجميع سيشكروننا فيما بعد.. والآن رتب لنا هذا بسرعة"

عندما جاء المساء كنا هناك وسط الكلاب النابحة.. المنطقة مقفرة تمامًا ومظلمة كذلك. الرجل الآن في قسم الشرطة وسوف

يمضي الليل هناك دون أن يعرف السبب. كان الباب الخشبي مغلقًا بالمفتاح لكني ركلته ركلة سريعة فانفتح.. مع كل هذا الفقر هو لا يخشى اللصوص..

الرائحة بالداخل عطنة تمامًا.. أضأت الكشاف أمسح الموجودات الحقيرة، وقلت بصوت مبحوح:

ـ"هل فهمت؟.. هذا المخبول يتحرك بالضبط طبقًا لأغنية (سوسة كف عروسة).. قدم لنا البسبوسة.. (سوسة خبط خبط.. طبطب يا بو كف مبطبط.. نفسي تكبرلي وأشوفك.. ماسك بيها الشموسة).. هذا يفسر كل علامات الارتطام والحروق في الكفين.. لقد أرغمها على أن تمسك النار!.. طبعًا أمضت الفتاة وقتها تدق طالبة العون.. هذا يوحي بأنها في مكان مغلق له باب أو غطاء"

قال وهو يلهث في رعب:

ـ"وماذا عن انتزاع الأظفار؟"

قلت على الفور:

ـ" املطلي كف محندق.. وضوافيره فسفوسة"

كنت أتكلم وأنا أفتش في الأرض.. هناك بالفعل وسط هذا

الغبار كله نمط محدد.. هذه البقعة.. تبدو لي مختلفة عن الأرض.. هناك ماسورة صغيرة تبرز منها. هناك كذلك قطعة من السلك الغليظ ملتفة كأنها مقبض..

انحنيت وتفحصت هذا المشهد، ثم مررت يدي على الماسورة.. الفكرة التي خطرت ببالي هي منظار الغواصة. ربما هي الشفاط الذي يتنفس به الغواصون..

قال د. مصطفى وقد بدأ يعزف نفس اللحن:

ـ"نونو قوي انما محسوسة.. أليس كذلك؟"

بلى.. رفعت عيني له وقد بدا لي هذا منطقيًا فعلاً..

دققت على الأرض مرة ومرتين.. هنا لشدة ذهولي سمعت دقات مماثلة من أسفل.. دقدق دقدق بكفوفك.. بكفوفك دشدش خوفك.. بكفوفك دقدق دقدق.. عصفورة قلبي تزقزق..

مددت يدي وعلى ضوء الكشاف تمكنت من رفع المقبض..

ارتفع لوح ثقيل من الخشب.. وعلى ضوء الكشاف أمكنني أن أرى تلك الحجرة الصغيرة تحت الأرض.. في حجم كشك السجائر لو وضع بالعرض. واستطعت أن أرى تلك الفتاة الرقيقة

صغيرة السن مقيدة اليدين مكممة.. كانت يداها مقيدتين من الأمام مما جعلها قادرة على دق الباب الخشبي لكنها يئست كما هو واضح.. كانت تنظر للكشاف في ذعر باكية ترتجف، لا يصلها بالعالم الخارجي سوى ذلك الأنبوب الذي يمدها بالأكسجين...

كان من المستحيل أن نجدها بالفعل.. لا يمكنك أن تجدها ما لم تبحث عنها بعناية.. نونو قوي إنما محسوسة....

نزعت عنها الكمامة فشهقت باكية.. كان فمها ملونًا بمادة لزجة عرفت على الفور أنها البسبوسة.. كان يدسها في فمها دسًا لتبقى حية. وكانت هناك مجموعة ممتازة من المدي وشاطور جوار الفتاة.. إن الحفل لم يبدأ بعد...

راحت تبكي وتمسح البسبوسة والدموع والمخاط في كتف سترتي، ثم قالت وهي تشهق:

ـ"من أنت؟"

ـ"صديق.. ما اسمك يا بنيتي؟"

ـ"نجلاء.. نجلاء أبو عياد.."

لم يبد لي الاسم ذا دلالة ما، إلى أن قالت في رعب:

-"لو عاد أبي سيمزقكما!"

هنا فقط تذكرت الاسم ونظرت إلى د. مصطفى كأنني أستغيث فقال كمن فهم:

- "بابا هنا في أودتك ضيفك..ابقى هاته بسبوسة.. المجنون التزم بالأغنية حرفيًا حتى أنه اختطف ابنته من مطلقته... هذه هي طريقته في الانتقام... لو كنت أعرف اسمها الكامل لخمنت أسرع.."

-"والفتاة الأولى؟"

-"لعلها كانت تدريبًا على هذه الخطوة، أو لعل النشوة لم تكن كاملة.. لا أعرف.. المهم أن نفك وثاقها ونفر من هنا.."

هنا صرخت الفتاة:

-"الفتاة الأخرى.. اسمها (نهلة)..قال لي إنها مدفونة هنا.. جواري.."

لما خرجنا من البيت المظلم وأدرنا محرك السيارة، شعرنا بالأمان للمرة الأولى.. الفتاة كانت راقدة في المقعد الخلفي لا تكف عن ترديد:

-"موسة.. موسة.. كف عروسة"

قلت لدكتور مصطفى:

-"سوف نتجه لقسم الشرطة حالاً.. ولكن أحب أولاً أن أبدي رأيي في براعتك الطبية. الرجل مجنون كقطة وأنت قررت أنه جدير بالخروج للمجتمع والحياة وسط أسرتي وأسرتك"

لم يرد ومد يده ليفتح جهاز المذياع.. هنا – لحظنا السيئ – دوى صوت عفاف راضي الرخيم يغني:

- "صقفلي وعلى تصقيفك. تمشي الدنيا على كيفك.. موسة كف عروسة!"



الرعب؟... تريد أن أكلمك عن الرعب؟.. هل تدرك حقًا أن هناك أنواعًا منه لا يستطيع القلم ولا اللسان التعبير عنها؟.. هل تدرك أن رعب المقابر والساحرات الشريرات واللعنات التي دفنت

في جوف الموتى، ليس هو الرعب الأكثر تأثيرًا؟

إن أسوأ الرعب هو التغيرات التي تحدث لأجسادنا أو لعقولنا. التحلل البطيء الذي يذكرك بتعفن الموت. لهذا يحمل مرض الجذام تلك الذكرى السيئة في وجدان البشرية، ولهذا يهاب الناس الصرع برغم أنه مجرد زيادة في كهرباء المخ. هناك رعب لا يمكن وصفه، وفي رأيي أنه يفوق أي رعب آخر: إنه العجز عن النوم..

يبدو الأمر سهلاً في البداية.. لكنك تكتشف مع الوقت أنك دخلت دائرة جهنمية. النوم لا يُستدعى ولكن يأتي عندما يريد ذلك. عندما تشرب كوبًا من الحليب الساخن وتدخل الفراش الذي يبدو مريحًا، وعندما تغمض عينيك وتسمع زوجتك تغط بصوت عال – ككل كائن نقي الضمير – وعندما ترتقب النوم، تكتشف الحقيقة المروعة: النوم لا يأتي أبدًا عندما ننتظره.. متابعة التفاصيل العصبية وتدفق موصلات النوم ومادة السيروتونين في المخ.. هذه المتابعة تجعل النوم يطير من عينيك...

تتقلب..

تحاول التفكير في أشياء كثيرة.. ذكريات اليوم. ذكريات الماضي.. ما ينتظرك غدًا... ثم تكتشف أنك ما زلت يقظًا وأن التنميل يغزو ذراعك اليمنى، فتنهض وتتقلب.. لا بأس.. هذا وضع مريح أكثر.. ربما تنام الآن.. المزيد من تدفق الذكريات وصوت الغطيط. أنت الآن في الماضي.. تقابل أشخاصًا رحلوا أو ماتوا وتتبادل معهم كلمات، وتعتذر عن أفعال ارتكبتها منذ زمن.. تفيق للحظة فتدرك أن الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وأنت لم تنم بعد...

لقد صارت ذراعك اليسرى منملة.. تحاول النوم على ظهرك.. وتفتح عينيك لتنظر للظلام المسطح فهذا يساعد على النوم كما يقولون، لكنهم نسوا أن الظلام يصلح كلوح كتابة.. كما في المدرسة تكتب ذكرياتك بالطبشور على الخشب الأسود، وتمر ساعة ثم تفيق لتجد اللوح مليئًا بالكتابة، وتدرك أنك لم تنم بعد..

تذهب للحمام لإفراغ المثانة.. تعذبك فكرة أن الجميع نائم يستعيد توازن جهازه العصبي.. الكل يحلم ويخرج رغباته المكبوتة بشكل رمزي، بينما أنت تحتفظ بكل هذا السواد. الأرق نوع من الإمساك العصبي . لا يمكن تفريغ أحشائك العصبية من ذكرياتها

المؤذية مهما حاولت. يبدو أنني بدأت أخرف...

الفراش – بعد كل هذه الحركة – لم يعد يرحب بأحد. الصورة المنظمة الموحية بالاسترخاء ولت للأبد لتتحول إلى أرض حرب معادية.. مئة ثنية في الملاءة ومئة تجعيدة والوسادة لن تعود أبدًا لوضعها القديم. كأنك تحاول النوم في أرض تدريب مدرعات.

في الخامسة صباحًا يتسلل نور النهار البكر حديث الولادة إلى الغرفة، وتدرك أن كل شيء صار حقيقيًا.. لقد غاب الظلام وغابت الظلال، ولم يعد الحلم ممكنًا..

من جديد تذهب للمطبخ وتشرب كوبًا من اللبن البارد، على أمل أن تظفر بساعة أخرى قبل موعد العمل.. العصافير تسخر من عجزك فوق كل أشجار الشارع.

من جديد تتقلب ألف مرة، وتدعو الله أن ينقذك من هذا الجحيم، فتأتي النجدة على صورة يد حازمة تهزك:

-"محفوظ.. محفوظ!.. حان الوقت!"

أنت الآن تواجه العالم من دون السلاح الوحيد الذي وهبه الله للإنسان، وأنقذه من براثن الفهد وأنياب الأسد وسم الأفعى.

السلاح الذي جعله يحكم كل الكائنات ويغزو الفضاء: العقل...

لم يعد لديك عقل. كل شيء زائغ ماسخ اللون.. كل شيء مزدوج.. كل قرار صعب حتى رفع كوب الشاي لشفتيك يبدو بحاجة لتفكير وتمحيص...

الأرق رعب لا نهاية له.. ألا ترى هذا معي؟

يتكرر هذا السيناريو عدة أيام، فتطلب رأي د. مصطفى. لا يبدو أن لديه حلولاً معينة عميقة. فقط يخرج روشتة طبية عليها توقيعه ويكتب لك بعض العقاقير. لا شاي ولا قهوة بعد الخامسة عصرًا.. جرب أن تعد غنمك.. جرب أن ترغم عينيك على أن تفتحا في الظلام.. لا مجهودات عنيفة في المساء حتى لا يتزايد الأدرينالين..

تبتلع الأقراص وتدخل الفراش.. لكن الكارثة تحدث: من جديد أنت تنتظر النوم.. لا شيء يحدث..

نفس السيناريو الأليم كالعادة. لقد مر أسبوع كامل وأنت لا تنام حرفيًا. زوجتك تؤكد أنها تصحو أحيانًا في الليل فتجدك نائمًا بعمق، لكنك لا تصدق هذا.. هي لا تصحو أصلاً منذ تدخل الفراش

في منتصف الليل حتى السابعة صباحًا، فمتى رأت أنك نمت؟ ولو كان هذا صحيحًا فكمية النوم غير كافية وغير مشبعة. يقولون إنه عليك أن تدخل مرحلة النوم المتناقض وأن تحلم حتى يصير النوم ذا جدوى.

في اليوم الثامن نهضت في الثانية بعد منتصف الليل. اتجهت للمطبخ لتشرب المزيد من اللبن، ثم فجأة خطرت لك الفكرة. اتجهت لتلبس ثيابك في صمت تام حتى لا توقظ أحدًا. السويتر الأسود ذو ياقة الفراء يبدو مناسبًا لهذا البرد..

في صمت مماثل انغلق باب الشقة خلفك، وهأنتذا تمشي في الشارع الخالي البارد. لا صوت سوى نباح الكلاب من بعيد وصوت سيارة يركبها شاب مجنون متهور. تمشي وأنت تراقب ذلك الفارغ الممتد أمامك على الأسفلت.....

كنت تعرف أن هناك إنترنت كافيه يظل مفتوحًا طيلة الليل على بعد شارعين، وهكذا وقفت أمام المحل المغلق الذي يحيط به زجاج أسود معتم. أزحت الباب الزجاجي الثقيل ودخلت.

بالداخل كان المكان معتمًا ما عدا الضوء الأزرق من بعض

الشاشات. لا يوجد الكثير من الأشخاص طبعًا.. من هو هنا مدمن إنترنت حقيقي أو ليس له مكان آخر يقصده.. هناك نحو ستة فتية في عمر ابني يجلسون أمام الشاشات، ويبدو أن منظري وتقدمي في السن أثارا دهشتهم..

جلست أمام شاشة فدنا مني رجل له شارب رفيع منسق بعناية، وقد بدا مرتبكًا لا يعرف كيف يتعامل مع ديناصور مثلي. لكني لست جاهلاً لهذا الحد.. أعرف بعض المعلومات عن التعامل مع هذه الصناديق الذكية.

-"هل تشرب شيئًا؟"

طلبت بعض النسكافيه.. فلم أعد أخشى السهر. الشاه لا يضيرها سلخها بعد ذبحها. وهكذا رحت أرشف السائل الساخن وأنا أتفقد بريدي الإلكتروني.. ثم بدأت أبحث عما تقوله شبكة المعلومات عن الأرق..

هنا سمعت الباب ينفتح، ودخل رجل في الخمسين من عمره يلبس معطفًا ثقيلاً. كان أصلع الرأس له عينان بلون السماء المكفهرة. ازداد ارتباك صاحب الكافيه فهو لا يتوقع زيارة متقدمي

السن مثلنا. الناس في هذه السن يجلبون المتاعب، أو هم من مباحث المصنفات....

جلس الرجل أمام شاشة كمبيوتر جواري ونظر لي للحظة ثم ابتسم ومد يده مصافحًا:

-"حسين العدوي.. محاسب.. أعتقد أنني هنا لذات الأسباب التي أحضرتك.. الأرق. أليس كذلك؟.. أم لعله شجار منزلي؟"

قلت له إنه الأرق وتمنيت أن يصمت..

بعد دقائق دخل رجل في الخمسين له لحية قصيرة شائبة تلتف حول فمه بطريقة (دوجلاس) المعروفة، ويلبس بذلة كاملة. لكن من الواضح أن صاحب الكافيه يعرفه لأنه رحب به. كان يسميه أستاذ (مينا).

جلس الأستاذ (مينا) على الناحية الأخرى بحيث صرت أجلس بينه و(حسين). وتبادلنا النظرات.. يمكن بلا كلام كثير أن ندرك أننا جميعًا نمر بذات المأزق..

قال الأستاذ مينا:

-"هل لعب أحدكم لعبة (طريق الحرير)؟"

قلت ضاحكًا إنني لا أعرف أي شيء عن هذه الأمور، وإنما أتركها لابني. لكن الرجل ضحك واقترح أن أحاول تعلمها.. إنها مسلية جدًا وسوف تكون خير رفيق للملعونين العاجزين عن النوم مثلنا.

-"أنا ألعبها منذ شهر.. لكن مع أشخاص عبر العالم"

هكذا بدأ يشرح لنا اللعبة المعقدة، ولكن ما يبعث النشوة في هو أن أرى كل هذه الأسماء.. هناك من يجلس أمام الكمبيوتر الآن ويلعب في اليابان.. في الأرجنتين.. في جنوب أفريقيا.. في كندا.. ترى كم من هؤلاء عاجز عن النوم مثلنا؟

بدأنا نلعب، وكل منا يجلس أمام شاشته.. وراح الوقت يرمح كالجياد. وكنت سعيدًا لأنني لست الوحيد.. لي رفاق في تعاستي هذه..

عندما تسلل ضوء النهار عبر فرجة الباب نهضنا وتثاءبنا، وأصر (حسين) على أن يدفع هو هذه المرة على أن أدفع أنا غدًا... سألته في جزع:

-"من أين تعرف أننا سنكون هنا غدًا؟"

ابتسم وقال دون أن ينظر في عيني:

-"لا أحد يشفى.. أليس كذلك؟"

كانت نبوءته صادقة تمامًا.. في اليوم التالي كنت هناك، ووجدت الرجلين هناك.. يا لها من لحظات أمام الشاشات وسط ظلام الكافيه!.. كأننا لم نعد نستطيع الحلم فصنعنا لأنفسنا عالمًا صناعيًا من الحلم..

فقدت القدرة على عد الأيام. لا أذكر كم يومًا ذهبت إلى هذا المكان، ولا كم من النقاط أحرزتها في تلك اللعبة، ولا كم من النقود أنفقت على شراء (السهلكات) كما يسميها الشباب. من الغريب فعلاً أن تستلب هذه الألعاب من في سني، لكن هذا حدث وبدأت أعرف أن ابني ليس أحمق جدًا.

إلى أن جاء يوم كنت أجلس فيه أمام التلفزيون مع الأسرة، وكنت أستعد لليلة أخرى سوداء.. كان الفيلم يظهر أسرة سجنت في بيت يحترق، وهذا أثار قلق زوجتي، فقالت لي بشكل عابر:

-"موضوع بوابة البناية هذه.. لا يمكن أن تعتمد على إيقاظ البواب لو حدث مكروه. يجب أن تستنسخ لنا مفتاحًا أو اثنين"

لم أستوعب كلامها فعدت أطلب أن تكرر ما قالت:

-"أنت تعرف أن بوابة العقار الحديدية تم تغييرها ولم نحصل على المفتاح بعد. من يرد مغادرة البناية أو العودة لها ليلاً لابد أن يوقظ البواب ليفتح له، أما في النهار فالبوابة مفتوحة.. "

هنا نظرت لها في ذهول:

-"هل تعنين أنه لا أحد يغادر البناية أو يعود لها ليلاً إلا بوساطة البواب؟"

-"ماذا حل بك؟... طبعًا أنت تعرف هذا.. "

-"ومنذ متى؟"

-"منذ أسبوع.. أنت تكاسلت عن طلب نسخة من المفتاح.. كما تكاسلت عن استرداد السويتر الأسود ذي ياقة الفراء من المغسلة منذ أسبوعين!"

نهضت مذعورًا وارتديت ثيابي بينما هي لا تفهم ما دهاني، وغادرت البيت ورأسي يوشك على الانفجار. الساعة لم تتجاوز العاشرة مساء لكن البوابة مغلقة فعلاً، وهكذا دققت باب البواب ليفتح لي.. قال لي وهو يبحث في جيبه:

-"لقد استخرجت لك نسخة من المفتاح يا دكتور"

لم أسأله أسئلة أكثر، وغادرت البناية ومشيت مسرعًا نحو النت كافيه. أزحت الباب الزجاجي لأدخل عالم الظلام المتألق بالداخل. ورأيت الشاب ذا الشارب الرفيع.. اطمأننت قليلاً لكنه باغتني بسؤال بسيط:

-"أية خدمة؟"

لا يعرفني.. لا يعرفني على الإطلاق.. وهكذا غادرت المكان ورأسي يطن كعش النحل. أنا لم أغادر البيت في أية ليلة.. لم ألبس السويتر ذا الياقة الفراء.. لم أذهب للنت كافيه.. الهلاوس الناجمة من الأرق هي التي جعلتني أفعل هذا.. كنت في فراشي أرى نفسي ألعب (طريق الحرير)..

لكن لحظة.. لماذا أعرف تفاصيل اللعبة وطريقة لعبها؟.. أين تعلمت هذا كله؟ لقد راجعت كل المعلومات مع ابني فوجدت أنني أعرف اللعبة فعلاً..

بعد شهر كنت في المترو عندما رأيت (حسين الصدوي)!..

كان يقف هناك ينتظر المترو وقد بدا عليه الإرهاق. دنوت منه

ونظرت له في لهفة فنظر لي.. هل تذكرني؟.. كنت زميلي في لعبة (طريق الحرير) لمدة أسبوعين كاملين..

هز رأسه وقال وهو يراقب المترو القادم بضجيجه المميز:

-"نعم أذكرك بشكل ضبابي.. لكن الحقيقة التي يجب أن تعرفها هي أنني لم أخرج من بيتي ليلاً قط.. لم يخرج أحدنا من بيته قط.. لو تمسكنا بشيء من الخيال، لقلنا إن المؤرقين المعذبين يتحرر جزء من وعيهم.. وكانت هذه الأجزاء تلتقي في النت كافيه لتمضي الأمسية، بينما هم لم يفارقوا فراشهم قط.. فكر في الأمر كذلك أو لا تفكر فيه.. لا يهم.. تحرك بسرعة لأن أبواب المترو توشك على الانغلاق"



الفهرس



الآن نفتح الصندوق

3

إن الخوف من الصندوق المغلق أو الحيرة بصدد محتواه قديمان جدًا في وجدان البشرية، ولسوف تجده في ألف ليلة وليلة وشكسبير وقصص الأطفال وكل شيء..

إنه الغيب مجردًا.. نحن محظوظون لأننا نعرف يقينًا أن الصندوق يحوي قصاصات ورقية.. لن نجد جثة كما في ألف ليلة وليلة، ولن نجد عقربًا أو ثعبانًا أو سبيكة مشعة أو غازًا سامًا أو لعنة قديمة..



د. أحمد خالد توفيق



